قيم روحية
علاء الدين وحيد

قيم روحية

قيم روحية

علاء الدين وحيد

محمد الغزالى
وعالم الحق المر

يعد الشيخ محمد الغزالى من ألمع المفكرين الإسلاميين الأصلاء القلائل، الذين يتسمون بالشجاعة فى القول والفعل والموقف. ومن هنا تجيء أهمية كتاباته. و"الحق المر" كما سطرها صاحبها .. سياحة سريعة مركزة، كمادة صحفية يفي تناولها فى الحيز القليل لما استهدفت له .. وهى تعطى اعتبارا لقارئ الصحيفة الذى لا قبل له بالكلمات أو الدراسات الطويلة. فتحدثه حديثا شيقاً يعالج قضايا تشغله على مستوى الواقع والفكر والحياة، من خلال المنهج الإسلامى. يقول مفكرنا فى مقدمته: "كما أن هناك مقاييس لقوى الزلازل، وأخرى لدرجات الحرارة والرطوبة والتلوث، فإن المهتمين بأمر الإسلام يرصدون ما يمس حقيقة رسالته ومسار دعوته وشئون أمته، وعوامل المد والجزر، واليقظة والغفلة، ثم يقدمون حساباً مضبوطاً لما رصدوه. وهذا الحساب شعاع على الطريق، وبيان لمن تتشابه عليهم الأمور. وقد يتطلب ذلك كتباً مبسوطة، لكننا هنا اكتفينا بالإشارات العجلى معتمدين على ما تخلفه فى نفوس القارئين من حركة وانتباه.".

التقدم الحضارى والتكنولوجى واقتراب العالم من بعضه البعض أكثر من أى وقت مضى، وتبادل الأخذ والعطاء بين

أطراف الدنيا، تعطى إنطباعاً سعيداً بأن الأرض أصبحت أسرة واحدة أو تكاد. ولم تعد العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى تربطها قاعدة الذئب والحمل .. وبذلك تلاشى تعصب الغرب الصليبى ضد الشرق المسلم وطويت صفحته إلى الأبد. القشرة السطحية للأشياء تنبئ بهذا، ولكن أيسر احتكاك يكشف القناع ويسقط الماكياج .. ويظهر الوجه القبيح بنفس الملامح القديمة التى تثير التقزز. مؤكداً أن الحروب الصليبية لا تزال تجند جندها. فمجرد إسلام عالم أوروبى معروف مثل جارودى فى فرنسا، يثير عليه النقمة كأنه أقدم على جريمة الجرائم، سواء على مستوى العقيدة أو الفكر .. بينما كان معززاً مكرماً وهو ماركسى ملحد! وحقت عليه اللعنة التى تكاد تكون جماعية، وعوقب من دور النشر، بل وقدم إلى القضاء بتهمة محاربة السامية!

والموقف هو نفسه على الصعيد الرسمى، فرؤساء الدول لا يتورعون عن التلويح بالتهديد كلما تطلعت بجد دولة إسلامية إلى التسلح بقوة ذرية. فلا تكاد باكستان مثلاً تستعد لبناء سلاح ذرى، انتهت منه بلاد من العالم الثالث كالهند وإسرائيل .. حتى تكشر صديقتها الولايات المتحدة الأمريكية عن أنيابها .. معلنة قطع مساعداتها العسكرية للدولة الإسلامية، بحجة أن ذلك يفسد توازن القوى .. ليبقى أعداء الإسلام الأقوى دائماً من المسلمين.

وإذا أمكن تبرير عداء الرجل العادى الغربى للمسلمين بجهله، وحقد الرجل السياسى لوعى الشعوب المسلمة التى لم

يعد يسهل خداعها .. فإن التبرير يسقط نهائياً إذا كان المتعصب رجل دين مسيحى .. ينتظر أن يكون درس وبحث وتعمق موضوعياً الأديان كلها. وتقبح صورة هذا التعصب إلى غايتها القصوى إذا كان رجل الدين المسيحى هذا .. هو البابا نفسه .. رئيس الكنيسة الأكبر. الذى يتحدث عن الإسلام ببغض شديد ويتهمه بما ليس فيه .. بينما لم يفعل العكس يوماً شيخ الأزهر. وينعكس موقف البابا بوضوح أكثر فى القضايا السياسية خاصة الصراع العربى الإسرائيلى. فتأييده للصهيونية بلا حدود وكذلك دعوته لمساعدة إسرائيل .. وإسقاط الحقوق الفلسطينية من حسابه. يقول محمد الغزالى: "أن البغضاء الكامنة ضد الإسلام وأمته لا تنتهى، وأوروبا وأمريكا سواء فى هذه المشاعر المشبوبة. أن ما تلقاه الأمة الإسلامية من غمط وإساءة فسيل لا ينقطع .. والمثير أنه يتم تحت عنوان "العلمانية" أو "الإنسانية" ولا يتم تحت عناوين التعصب الدينى والأحقاد القديمة!".

ومن القضايا التى عرضها الشيخ الغزالى قضية الماركسية – قبل انهيار الاتحاد السوفييتى بوقت طويل– التى كتب فيها على مدى عقدين أكثر من مؤلف هام. ومن جوانب الماركسية التى يناقشها عالمنا، تشويه الشيوعيين للحقائق ما دام يحقق أغراضهم من لوى الأشياء. فعل ذلك العرب والمصريون منهم مع الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى. ولم يخجلوا من أن يعدوه ماركسياً! مع أن الرجل العظيم كان مسلماً عظيم الإيمان، يؤمن بالله ورسله وكتبه، ويؤدى

الفرائض ويعترف بالملكية ولا يلغيها. وكان زاهداً متقشفاً يكره الصراع الطبقى الذى ينهى عنه الإسلام .. وهى جميعاً جوانب تكرهها الشيوعية. وجاءت أهميته عندهم من رأيه فى شيء واحد هو المال، وقوله بألا يستبقى أحد عنده فوق حاجته. وهو كما يرون قيمة ماركسية حقيقية .. يتشرف صاحبها بأن يكون شيوعياً أصيلاً!

ويبين الشيخ الغزالى ما كان عليه المجتمع المسلم فى فجر الإسلام، من إيثار ورحمة وإسراع فى البذل وبالذات فى أوقات الشدة، حتى ليخرج البعض عن ماله كله أو نصفه .. فى سبيل الله وفك ضائقة المسلمين. ويعقب عالمنا موضحاً حقيقة رأى أبى ذر وموضعه من جوهر التعاليم الإسلامية قائلاً: "لكن شيئاً من ذلك لم يعطل آيات المواريث، ولم يمنع أصحاب الفضول أن تكون لهم مدخرات تنفعهم فى غدهم، وتنفع ذراريهم من بعدهم، ولم يختف التفاوت بين الأغنياء والفقراء فى مقادير الثروات التى يحوزونها. الذى اختفى هو التضور والبأساء! ربما ظن أبو ذر أن النعماء التى شاعت أن أحداً لم يمسك شيئاً يزيد عن حاجته، وربما سبق إلى ذهنه، أن يحرم الادخار على المؤمن. لقد اتفق أولو الرأى والعقل على أن ذلك خطأ. فهل يعنى ذلك اتهام الرجل الصالح بأنه من اليسار الإسلامى!؟ الإسلام دين ليس له يسار وليس له يمين، أنه نهج فذ يخالف المغضوب عليهم كما يخالف الضالين. إن الشريعة فى البناء أخت العقيدة فى الأساس، ومع الشريعة والعقيدة معاً نسير ونرفض أى تحريف ..".

والشيخ الغزالى مثال لعالم الدين غير التقليدى، ويرجع ذلك إلى إيمانه الحقيقى واستنارته وشجاعته. فهو يعيش هموم الناس وأحلامهم ويناقش قضاياهم، ومن هنا تجىء كتاباته نابضة بالواقع ومشاكله نابضة بالحياة، يجد المواطن فيها من يتعاطف معه بصدق. وعلى كثرة ما يتناول مفكرنا من موضوعات .. إلا أنها جميعاً نابعة من قضيته الأولى التى يكافح من أجلها ويجعلها مهمته الرئيسية فى الحياة، وهى العمل على يقظة المسلمين وإيقاف تدهورهم المستمر فى كل المجالات .. ليكونوا كما أراد الله لهم .. خير أمة.

ومن لمساته فى هذا الصدد، قضية انقسام العرب والمسلمين فى الغربة. فهم لا يكتفون بعيوبهم وأخطائهم القاتلة فى أوطانهم، بل ينقلون كل هذه الجرائم معهم الى خارج الحدود. لا يخجلون من متابعة آثامهم وهم بين الأجانب وفى بلاد غريبة .. تفرض إزالة أسباب سوء التفاهم والتناحر والتقاتل، وإحلال التصالح والأخوة بينهم. ولكنهم بقصر نظرهم وفسادهم وخوائهم، يؤثرون الصالح الخاص على الصالح العام. ويطعنون العرب والإسلام من الداخل .. وهو نفس ما يستهدف الصليبيون. وبذلك لم يكتفوا بتشويه صورتهم وبلادهم .. بل شوهوا الإسلام نفسه كحملة عقيدته. "إن فراغ النفس والعقل وراء التطلع إلى الصدارة، واختلاق تشكيلات كثيرة لإشباع رغبة طفولية. إننى أنصح المسلمين فى كل بلد أوربى يعيشون فيه أن يكونوا شكلاً وموضوعاً موضع إعجاب الأمة التى نزلوا بأرضها، ولن ينالوا هذا

الإعجاب إلا إذا كانوا آية باهرة فى تربيتهم وثقافاتهم ومسالكهم، هنالك فقط ينتظرون البقاء والنماء.".

والقضية غير التقليدية الثانية التى يتناولها عالمنا، هى الاستفادة بأخطاء أعدائنا. فلخصوم العرب والمسلمين نقاط ضعف أيضاً .. نستطيع لصالح الإسلام والبشرية معاً أن نستفيد ونفيد منها .. على شريطة أن نتهيأ لذلك فنكون مؤمنين حقاً. فالتصدى للعمل الحقيقى فى سبيل الله لا يمكن أن يعتمد على شخصيات هزيلة ونفوس ضعيفة وإرادات متهالكة .. بل على عكسها على طول الخط. ومن ثم فإن الشيخ الغزالى يقول: "إن أخطاء أعداء الله كثيرة، بيد أن السؤال الخالد: من الذى يستطيع استغلال هذه الأخطاء وتحويلها لمصلحة الحق؟ يستطيع ذلك مؤمنون ترشحهم خلالهم لوراثة الأرض والإمساك بزمامها على نحو أقرب للشرف والعدل وخشية الله، وكفار زماننا لا يقلون شراً عن أندادهم الأولين. ويظهر أن زمام الدنيا قد يبقى فى أيديهم زمناً أطول! لماذا؟ فى رأيى لانعدام الورثة الذين يعرفون شئون الناس بمواريث الوحى الأعلى، إننا نحن المسلمين لم نستكمل بعد خلال القيادة الروحية والفكرية لجماهير البشر، وسنن الله الكونية والاجتماعية لا تعرف المحاباة".

والقضية الثالثة هى أسلوب الدعاة المنفر. فلسنوات بل لقرون طويلة منذ عصور الانحطاط التى أرجعت المسلمين إلى الوراء، والكثير من الدعاة يتخذون أسلوباً مغايراً لما أمر به الله من الحكمة والموعظة الحسنة، فى الدعوة إلى دينه وتحبيب

الناس فى العقيدة وتقريبها إليهم، وإذا بهم لبعدهم عن جوهر الدين وعما يجب أن يتصف به عالم الدين الحقيقى، ولإضفاء هيبة مزعومة يخدع بها الناس .. يتخذ من اللفظ أغلظه ومن تعبير الوجه أقساه .. يعسر ولا ييسر .. ينفر ولا يبشر، بينما الدين يحضه على ما يخالف تماماً. "إن نبع المودة الدافق من قلب الرسول الكريم بدل القلوب من حال إلى حال، فهل يتعلم الدعاة ذلك من نبيهم فيؤلفوا بدلاً من أن يفرقوا، ويبشروا بدلاً من أن ينفروا؟!". ويقول فى موضع آخر: "إذا كنتم لا تحسنون الدعوة إلى الله، فدعوا ذلك لمن يحسن. إن منطق قطاع الطريق لا يسمى فقهاً، والحرص على اتهام الآخرين بالإثم ليس غيرة على الدين".

والقضية الرابعة هى تنصير أفريقيا. فالقارة السوداء التى يسودها الإسلام فى أغلب مناطقها .. مهددة بالارتداد عن دينها الذى آمنت به منذ قرون. بينما أصحاب دين التوحيد فى العالم كله .. سواء عن جهل أو علم، لا يدركون الخطر أو غير مبالين. أن الإسلام هو الدين الأول فى أفريقيا، الذى دخل فيه الناس أفواجاً .. مدفوعين بفطرتهم قبل كل شىء، ثم تأتى بعده فى المرتبة الثانية الوثنية، وفى الثالثة المسيحية. ولأن الفطرة هى التى لا تزال تتحكم فى الأرض الأفريقية البكر .. فالإسلام لا يزال هو الآخر يجد استجابة قوية. ولكن هذا الحضور القوى المجرد لدين الفطرة بلا عون حقيقى من أهله .. كشف من قوى أعدائه، وأخذ يقابل مده بمقاومة ضارية من المبشرين المدعمين بالأموال الطائلة من الحكومات

والشعوب الغربية .. والذين يقدمون للقبائل خدمات شتى متنوعة هم فى أمس الحاجة إليها -بينما تجاهل المسلمون هذه الحاجة وبخلوا بها- بجانب أن الدنيا مصالح أيضاً.

ويضع بابا روما ثقله فى هذه القضية، وهو يأمل أن تتنصر أفريقيا كلها مع نهاية القرن العشرين. لذلك فهو كثير الزيارة لها، متابعاً بنظرة ميدانية ما يدور على أرضها من جهود أتباعه. يقول الغزالى: "ماذا أعددنا وديننا مهدد بالانقراض أو الانحسار فى قارة كبيرة؟ الأمة التى قيل لها: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) .. ليس لها جهاز عالمى للدعوة إلى الخير، وإذا صنعت على الورق أجهزة لم يوجد الرجال الذين ينفخون فيها من قلوبهم روح الحياة والانطلاق! لماذا؟ هل نضب معين الإسلام؟ كلا ما ينضب ولن ينضب. إن الأخدود الغائر بين رجالات الدعوة ورجالات السلطة يجب ردمه على عجل حتى يوجد الرجال الذين يملئون الفراغ المخيف. كانت الخلافة العظمى مسئولة عن مستقبل الإسلام والمسلمين حيث كانوا، وظاهر أن دفن هذه المسئولية جزء من مخطط لإسقاط الخلافة، وترك المسلمين دون انتماء ولا حماية ولا تناصر، على حين يحظى غيرهم بالانتماء والحماية والتناصر".

وعلى قدر طول قامة الشيخ الغزالى، تجئ كلماته .. يتساوى فى ذلك أن تكون القضية التى يعالجها جليلة أو صغيرة الشأن. فهو فى كلتا الحالتين يصل إلى روحها وأعماقها، محللا دقائقها .. مبلوراً الجانب الذى يتابع. مثال

ذلك تعاطف أهل الغرب المشهور مع الحيوانات الأليفة .. الذى يبدو معها أن الإنسان قد استكمل كل أخلاقه العليا المتصلة بالبشر .. ولم يعد باقياً إلا الحيوان. فما هو واقع القضية الغارقة فى الإنسانية؟ إن تناول مفكرنا لها يكشف العكس تماماً! فالتظاهر فى الموقف أكثر من الحقيقة، بحيث يبدو كما يقول الغزالى "إن حقوق الطير فى البقاء أرجح من حقوق بعض البشر"!

ولكن الذى لم يذكره عالمنا وكان يمكن أن يفسر الظاهرة أكثر .. أن الرجل الغربى يؤمن صادقاً بالحرية والنظرة الإنسانية حتى للحيوان، ويدافع فى سبيلهما. ولكن هل يحتم ذلك أن يمتد هذا الإيمان إلى بقية البشر؟ من وجهة نظره لا بالطبع .. لأنه يرانا نحن العالم الثالث أو العاشر أقل من الحيوان درجات ولا نستأهل شيئا، ولولا تبادل مصالح الدول لما اعترفوا بوجودنا. وربما كنا نستحق ذلك .. لأننا مع ديننا الذى يحث على فعل كل ما هو عظيم ورفيع، نهبط بأنفسنا إلى الدركات السفلى .. طمعاً وجبناً وسفالة. ثم نبكى أو نتباكى على ما يفعل الغرب بنا أو ما يتخذ منا الأقوياء القادرون!

ومن كلمات الشيخ محمد الغزالى فى "الحق المر" قوله:

• يكره الإسلام الأمراض النفسية كراهية شديدة، ويراها أسوأ عقبى وأعم ضرراً من الأمراض البدنية. والواقع أن عمى البصر أخف من عمى البصيرة، ودمامة الوجه أهون من دمامة

الروح. وقد رأيت فى حديث نبوى واحد إستعاذة من جملة علل نفسية تهبط بقيمة الإنسان وإنتاجه، وتحول بين الشعوب وبين أية مكانة مرموقة. والحديث كما صح فى المأثورات: "اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال".

• إن ارتباط الشريعة بالعقيدة لا يمكن فكه ولا التهوين منه.

• الإيمان ليس فقيراً فى دلالته وحقائقه حتى يخاف الحوار!

• إن نصف الأمة الإسلامية يترنح تحت وطأة الاستعمار الصليبى والشيوعى، والنصف الآخر يرى دينه منكور التوجه فى أكثر من ميدان، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. ففيم المجون والضحك؟

• شريعة الصيام تدريب على جهاد النفس والتحكم فى مطالبها ورغائبها وإخضاعها لضوابط الأمر والنهى وإشعار الإنسان أنه روح قبل أن يكون جسماً، وعقل قبل أن يكون هوى وغرائز. والحضارة المعاصرة نسيت هذه الحقائق كل النسيان، وبنت سلوكها على إجابة النداء الحيوانى للأجهزة الدنيا فى البدن، وعلى اعتبار الكبت -مهما شرف سببه- ضاراً بالإنسان! ترى ما الفرق بين البشر وغيرهم من الحيوانات إذا كان الإنسان يفعل ما يحلو له دون أى - أو - أدنى اعتراض؟

• فقدان الأخلاق يعني امتداد النفاق وانتشار الفساد، وضياع الأمم. وعندي أن إشعال التعصب المذهبي كان خطة ماكرة لصرف العامة عن النقد السياسي ومتابعة الأخطاء التي أودت بالدولة الإسلامية قديماً! ويبدو أن الخطة لا تزال تنفذ إلى الآن!

• أن الجرّاء على قول الحق ما اكتسبوا جراءتهم تلك إلا لما لاحظوه على أهل الحق من خور وتهيب، نعم لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق.

• أعترف بأننا -في خير أحوالنا- أصحاب ردود أفعال، ولسنا أصحاب أفعال إيجابية. أي أننا قد نتحرك إذا تحرك غيرنا وشممنا رائحة الخطر، وقد نتبلد حتى تقع الكارثة.

• محاربة التطرف لن تكون أبداً سبيلاً لمحاربة الإسلام نفسه.

• رأيت بعض الجهال الذين لا يجوز لهم الكلام في الإسلام يرجمون المجتمعات بآثار ما فهموها، وما يدرون شيئاً عن ملابساتها ودلالاتها. يقول للناس: إن الأغنياء أكثر أهل النار، وإن النساء أكثر أهل النار، يعنون أن الغنى جريمة، وأن الأنوثة جريمة! وهذا لغو مقبوح الفهم والآثار، وقد آن للأمة أن تبرأ منه، وأن تنصح قائليه بالصمت والتوبة.

• إذا أرخص العرب الإسلام فما مسوغات بقائهم في هذه الدنيا، وما انتظارهم لنصر الله؟

• والأمم عندما تهزل تهبط بمستوى العبادة بدل أن ترتفع هى إليها.

• فى هذه الأيام العجاف رأيت حرائق تندلع إثر خلافات مستصغرة، ورأيت دين الله يتسع لوجهات نظر لها وزنها المتقارب، ولكن دنيا الناس تضيق بما وسعه دين الله، إن الفقه مظلوم عندما نحمّله اشتجار الآراء واحتدام العصبيات وتجريح الرجال، لعل المسئول ضعف الفقه، أو لعل المسئول ضعف التربية الخلقية والآداب النفسية .. فمتى نبرأ من هذه العلل؟

• القراءة دون وعى علة أصيب بها المسلمون من قديم جعلت صلتهم بالوحى الآلهى سطحية عقيمة، فهم يكتفون بتلاوة الآيات أو بسماعها، وقد تومض فى أذهانهم بعض الهدايات، ثم تنطفئ على عجل أو مهل قبل أن تملأ النفس بسناها العميم.

• إن كل مولود يولد على الفطرة، أى على حقائق الإسلام، وإن التقاليد الفاسدة والعقائد الزائفة هى التى تتلقف الأجيال الناشئة وتنحرف بها يمنة ويسرة بعيداً عن الصراط المستقيم.

• ما أرخص الإنسان العربى فى دنيا الناس، وما أهون دمه وعرضه، وما أضيع حقه .. لكنه هو الذى فعل بنفسه ذلك كله، إنّ المنتحر لا يتهم أحد بقتله، فهو قاتل نفسه. إن الله شرف العرب يوم ابتعث منهم محمدا، واصطفاهم لتبليغ رسالته، فإذا أنكروا هذا النسب ونسوا تلك الرسالة، فما يكون شرفهم بين الناس؟!

خامس الخلفاء
عمر بن عبد العزيز

"لابد من الجهاد لإنقاذ الإنسان من الظلم والفوضى والسقوط!
لا كنت يا زمن السقوط ..
أواه يا زمن القنوط!
من لى بأيام القنوت ونفحة من ذلك العصر العظيم؟
من لى بأيام الرجال الصالحين القانتين الراشدين؟
لا كنت يا زمن البشاعة والشناعة والدناءة والقماءة!
لا كنت يا زمن الرداءة
يا أيها العمر الأثيم!
لا كنت يا عصر البغايا والبغاة!
لا كنت يا زمنا يعربد فيه سلطان الفجور على الحياة!

عبد الرحمن الشرقاوى

يستهدف الشاعر والأديب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى من إسلامياته، كما يصرح فى كتابه "خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز" وهو يهديه إلى أولاده .. أن تجد الأجيال الشابة فيه، ما يحبب إليها تراثنا العظيم أكثر "فتجدوا فيه الأسوة، والعبرة، وما يعنيكم على حل مشاكل عصركم". إنه الإيمان بأن الإسلام يظل دائماً أكثر عصرية وتقدمية من أية قيم أرضية أخرى!

لقد بهرت فناننا شخصية الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز، ووجد فيها قمة إنسانية مضيئة تهدى البشرية فى طريقها الطويل. وتمكنها من السعى مؤصلة معانى الحق والخير والشرف والحرية، فى نضالها المستبشر ضد قوى الظلام. هذا الإمام العادل الذى "ضحى بثروته، وعافيته، وبكل شىء حتى حياته، لينشر قيم الإسلام الفاضلة، وليدافع عن الحقيقة والعدل والإخاء وحقوق الإنسان، متحدياً الخطر والمؤامرة، والسم والخنجر"!

والتعاطف هو العامل المشترك بين أصحاب القلوب الكبيرة والنفوس النبيلة والإرادات الصلبة. وهو أيضاً اللغة التى تتواصل بها الأجيال المتعاقبة. مما مكن الشرقاوى من تجسيم الشخصية العظيمة لعمر بن عبد العزيز. ولهذا الباحث تتوقف الدراسة عند التمزق الذى تعرض له الأمير الأموى فى شبابه، وهو يدرك أن الفتوحات الإسلامية التى تمت فى خلافة عمه عبد الملك بن مروان .. ضلت طريقها إلى الحق. وأنها لم تكن كما أعلنت عن نفسها فى سبيل الله، وإنما فى سبيل المنفعة الخاصة. وعلى حساب الإنسان المسلم الذى قيدت حريته وحرم من الكثير من حقوقه فى ظل الخلافة الأموية المتسلطة. "أرسل عبد الملك جيوشه شرقاً وغرباً، فحققت الانتصارات وفتحت كثيراً من البلاد، ونشرت فيها الإسلام .. هذا حق، ولكن صهيل الخيول الزاحفة بفرسان التنوير، والأبواق العزافة بالانتصارات العظام، ودوى الطبول المبشرة بروعة الفتوحات، كل أولئك ما كان ليستطيع أن يغمر صرخات المظلومين، أو يعلو حتى على الأنين الخافت الذى يتصاعد من وراء أسوار السجون، ومن أغوار

رطوبة الكهوف المظلمة، وما كان بقادر على أن يخفى صلصلة الأغلال! ظل عمر الفتى المرهف يسمع من خلال رجع البشائر بالانتصارات، أصداء الشكاوى الفاجعة تتصاعد على الرغم من كل شيء، من المطحونين والمعذبين، فتزلزل الضمائر الحية، وتعصر القلوب الشريفة".

ويتوقف كاتبنا المدقق عند أكبر طاغية في ذلك العصر، وهو الحجاج بن يوسف الثقفى .. وهو أيضاً صناعة أموية. ويصل فى تصويره له إلى الذروة، وهو يقدمه نموذجاً للحاكم المستبد المتجبر الذى يستهويه التعذيب وإراقة الدماء ونفاق الخلفاء. ولما كانت الديكتاتورية هى بالدرجة الأولى، إفساد لطبائع الأشياء واصطناع المؤيدين المصفقين، وإفساد الذمم لمضاعفة معسكر الاستبداد من ناحية. والإقلال من أصحاب الضمائر الحية من ناحية أخرى، والتلويح بالترغيب والترهيب، وإنشاء القوات العسكرية القوية لحماية الحاكم الظالم من غضبة الشعب .. وهى جميعاً تتطلب الإنفاق الباهظ، الذى يأتى أولاً بأول على خيرات البلاد. فالطغيان هو أيضاً الخراب، وكذلك فعل الطاغية الحجاج. "كان الحجاج لما ولى العراق قد هبط بدخل العراق إلى ثلاثين مليوناً بعد أن كان ثمانين فى عهد سلفه"!

ولا يعرض الشرقاوى لأعمال الوالى المتسلط فحسب، بل يناقش كذلك مفهوم السلطة المستبدة -قمة وجمهورا ومستفيدين ومذعورين أيضاً- ولجوءها فى إخفاء عوراتها إلى لى الذراع وتحويل الانتباه، والتشكيك فى الآخرين، وتكثيف

الضباب حول الوقائع والأحداث .. دفاعاً عن الأخطاء القاتلة للمستبدين. وفي نطاق هذه الرؤية .. يبدو واحداً من أبشع الولاة السفاحين في العالم وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، إنساناً مظلوماً يستأهل الرحمة! لماذا؟ لأنه لم يمد يده إلى أموال الدولة، ومات فقيراً لا يملك ثلاثمائة درهم! ويكون الرد المفحم للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز: "شر مخلوقات الله وهو إبليس لم يسرق"!!

القضية الأولى التي واجهها الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز، ووضع فيها كل ثقله وتعد أخطر معركة شرسة خاضها، هي رفع الظلم البشع مختلف الألوان عن الشعوب الإسلامية التي تعرضت له طوال عهود الخلفاء الأمويين السابقين. وتجيء شراستها من أن الطرف الآخر -وهم أهله- كان قوياً عنيفاً متسلطاً، يشكل الطبقة الحاكمة التي تمتلك معظم الثروة بين يديها .. تؤمن رغم إسلامها أن أفرادها جنس ممتاز يجب أن يعلو فوق بقية الطبقات والجماعات الأخرى جميعاً! وأن امتيازاتها التي لا حدود لها وحصلت عليها بلا وجه حق، والتي مكنتها من الجبروت والبطش والقسوة، لا ينبغي أن تمس! ويضرب الخليفة العادل ضربته ضد الظلم والظالمين، وهو يفرض مبادئ الإسلام التي تجوهلت زمناً طويلاً. يرد الحقوق لأصحابها ويعيد إلى بيت المال ما نهب منه في ظل الاستبداد والمستبدين، باسم امتيازات الصفوة الحاكمة.

ولما كان الفساد السياسى قد أنشب أظفاره سنوات طويلة فى جسد الأمة، فالعلاج الناجع كما أدرك عمر بن عبد العزيز يحتاج إلى جهود كثيرة ووقت غير قصير. فلا يكفى أن يصدر قراراته الحاسمة بإرجاع الحق إلى أصحابه، بل أيضاً أن يقتلع جذور الأفكار المرتعدة والنفوس اليائسة والمتشككة والقلوب الواجفة .. وهى بعض ما يتنفس مناخ الاستبداد. وفى سبيل إشاعة الأمان ولطمأنة الجماهير إلى عدالة الخلافة وتغير السياسة، جعل الخليفة العادل لمن يرشد عن ظلم أيا كان مكافأة مجزية. ويأمر بأن يعلن فى موسم الحج: "أيما رجل قدم علينا فى رد مظلمة فى أمر يصلح له الله به خاصاً أو عاماً من الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة، بقدر ما يرى من الحسبة، وبعد الشقة، وطول السفر، وبقدر ما يحق الله به حقاً، أو يميت به باطلاً، أو يفتح من ورائه خيراً".

والإقبال الشديد الذى تحظى به كتابات عبد الرحمن الشرقاوى الإسلامية، يرجع إلى أكثر من عامل. فالروح الشعرية المفهفافة مع الأسلوب القصصى بجانب قاموسه الخاص المجنح، أذابت ما تثقل به الدراسة عادة من رتابة وجفاف، وطوعتها لتتعمق أكثر الإنسان والعصر والمجتمع والصراع السياسى وغياب الحرية والشورى وتسلط الحاكم. ولا ريب أن اضطلاع فناننا الكبير بمهمة تقديم شخصية عمر بن عبد العزيز بأسلوب عصرى، أضاف إلى المعالجة الفكر المعاصر الذى يتكلم بلغة حديثة ويشكّل أشواقاً آنية. وفى الوقت نفسه حرص الشرقاوى على الالتزام فى دراسته بالشكل

التقليدى للإطار الخارجى، فلـم يبعـد عمـا ألـف القـارئ فـى دراسة الشخصيات الإسلامية بالذات .. و لم يذهـب فيهـا إلى نهجه فى شعره الجديد!

ولعل أظهر عنصر اجتمع لدراسة الشرقاوى، ما يغلب على طبيعة صاحبها، وهو الشعر. الذى نلتقى بـه أكثر مـن غـيره بصورة مباشرة وغير مباشرة. فهو من داخل التناول يشع مـن روحه على عوالم الأشياء، بكل مرهـف مـن الإحسـاس، وهـو فى اللفظ الموحي الذى يشيع السكينة فى النفس، كأنها جماع عواطف التعايش إزاء ما تقبـل عليـه مـن أقسـى صـور صـراع الخير ضد الشر. وهـو أيضـاً فـى الاستشـهاد، وأغلبـه يتصـل بالموعظة.

وبالرغم من أن شخصية عمر بن عبد العزيز هى محور الدراسة فى جزئياتها وكلياتها، إلا أن الشرقاوى لم يجعلها كما وقع لغيره من كتاب التراجم، جزيرة منعزلة أو تكاد عن نبض الواقع المعاش فى عصرهـا. فقـد توسـع كاتبنـا فـى عـرض دقـائق كـل مجتمـع ظهرت فيه الشخصية الإسلامية الباهرة. مستهدفاً شيئين هامين؛ الأول تصوير الاندماج الحميم لصاحب الترجمة وتعاطفـه الشـديد مع قضايـا عصـره، سـواء وهـو فـى خـارج الحكـم أو داخلـه. وكذلك تفسير البصمات الدالة لعمر بن عبد العزيز التـى مكنـت لشخصيته مـن أن تتجسـد، ويكـون جهـاد صاحبهـا بعثـاً للقيـم الإسلامية الحقيقية التى ازدهرت فـى عصـر الخلفـاء الراشـدين .. ولهذا أطلق عليه خامس الخلفاء.

والجانب الثانى تقديم حركة المجتمع وما أصاب تكوين الإنسان المسلم من تدهور أيام الأمويين، برغم فتوحاتهم العديدة. وابتعاد خلافة بنى أمية عن روح الإسلام الحقيقية، اكتفاء بالمظاهر الجوفاء التى تخدع البسطاء. وانغماسها فى أبهة السلطان بديلاً عن توكيد القيم الإسلامية والعمل بها. وملاحقة أصحاب المبادئ الرافضين للظلم والطغيان، التى أخذت تنخر فى بناء الإنسان المسلم.

وقد بلغ انغماس كاتبنا فى هذه الناحية، حد الإثقال على الدراسة، وفى سبيل الإلحاح على قتامة صورة الحاكم المستبد وما يقابلها من إشراقة حكم عمر بن عبد العزيز. وكذلك تفاصيل الحياة العامة والخاصة لكثير من الحكام الأمويين التى وصلت إلى الحضيض، مما أصاب المعالجة بالإطالة بلا مبرر. وهذا الإسراف بجانب أنه أخل بالنسب بين عناصر البحث ومن ثم بالتناسق، فقد ساوى بين ما يتصل مباشرة بالمترجم له وبين ما لا يتصل! فجار عنصر على آخر، وتجوهل جانب لحساب ثان! فلم يكن من المستطاع والحديث عن سلبيات الحكام الأمويين وبيت عمر بن عبد العزيز أحد فروعه الهامة، أن تتجاهل الإشارة إلى إيجابياتهم. ولما كانت النقائص المتصلة بقضايا الحرية والعدالة الاجتماعية هى هم كاتبنا الأول، فقد تصدرت الموقف. وبات تناول بعض الإيجابيات مثل الفتوح الإسلامية فى عهدهم، غير مهتم بها بدرجة كافية .. مع عظمة هذه الفتوح واتساعها وما غيرت من مناطق النفوذ. الأمر الذى عاق عملية الاستقراء بما يشبه فضول

القول. وأظهر أشكاله التناقض الحاد بين معنى الفتوحات وبين استبداد الحكام الذين سيروا هذه الفتوحات!

ومنذ البداية وغوص الشرقاوى فى أعماق عمر عبد العزيز، مكّن لملامح الأخير وقد سلطت الأضواء على دقائقها بشكل كاف، أن تبلور ما عليه أعماق صاحبها. ولما كانت رئاسته للدولة الإسلامية صفحة جديدة فى حياته، فهى من وجهة نظر فناننا تحتاج إلى تكثيف أكثر، وكأنه لم يعالج ذلك بالفعل! وابتغاء كاتبنا تقديم أدق الملامح لخامس الخلفاء، عرّضه لإيراد ما لا يتفق مع منهج الشرقاوى نفسه، كما فى عرضه لمقتطفات طويلة جداً من كلمات الخليفتين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب، اللذين كان عمر بن عبد العزيز شديد الإعجاب بهما، ضمتها سبع صفحات من القطع الكبير. بلا تحديد لما يذهب إليه كل خليفة، وكأنها هى وحدها التى تتفق مع مبادئ المترجم له.

وهذا الاستشهاد لا يعكس رؤية تنطبق على الجميع، مما أوقع الدارس فى مأزق، وهو لا يفعل المثل بالنسبة إلى قدوة المسلمين جميعاً وهو الرسول عليه السلام. فلم يتطرق الكاتب إلى تأثير شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ومواقفه فى عمر بن عبد العزيز! بالرغم من أنه يشير إلى عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب بقوله: "فكلاهما ينساب من نبع النبوة القدسى، حيث الفيوض الربانية تحيى أمل الإنسان فى الخلاص لتزهر جنته فى الحياة الدنيا، وفى الآخرة".

لقد وفق أديبنا الكبير عبد الرحمن الشرقاوى فى معالجة شخصية عمر بن عبد العزيز الفذة، الذى يشكل صاحبها فى التاريخ الإنسانى والإسلامى .. إحدى قممه الشاهقة. وقدرة الإنسان فى غير عصور القداسة والنبوة، على الارتقاء إلى قمة النقاء والإرادة والفعل والتضحية، رغم كل ما أحيط به من قوى الشر. لقد استطاع خامس الخلفاء الراشدين بجهد عظيم وجهاد غير عادى، أن يعيد العدل والحق إلى الأرض الإسلامية التى ملئت جوراً تحت حكم الأمويين. وينقذ الأغلبية من واقع الفقر الكئيب الذى يمتهن آدميتهم، بعد أن أعطى كل ذى حق حقه، بلا محاباة أو استثناء أو تفرقة. وأثرت الشعوب الإسلامية بفضل إعادة عمر توزيع المال على أساسٍ من العدل والإحسان، بعد أن كان الثراء مقصوراً ومحصوراً فى طبقة واحدة هى الطبقة الحاكمة! وإلى الدرجة التى امحى فيها الفقر، ولم تجد الزكاة من توزع عليه!

ويصل مد العدالة الاجتماعية والرخاء فى أيام عمر الثانى إلى "ولما فاضت الأموال فى خزائن عمر بعد كل الإصلاحات، أصدر أمراً إلى عماله فى الآفاق، أن ينطلق المنادون فى كل مكان، لا يتركون ركناً من حضر أو بادية، ولا قرية، أو أى مكان به سكان من البشر، لينادوا فى الناس: "أين الغارمون (المدينون)؟ أين من يريدون الزواجٍ؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟" .. ليقوم بيت المال بشأنهم جميعاً .."!

طلع البدر علينا

بالرغم من أن أنيس منصور، يتحدث فى هذا الكتاب، عن نفسه -كعادته- أكثر مما يتكلم عن الإسلام والقيم الإسلامية وحادث الهجرة! وبالرغم من أن القارئ يدرك جيداً، أن أنيس منصور، قبل أن يعترف هو نفسه بذلك، ليس كاتباً إسلامياً! وأنه كما قال: لا يعرف الكثير عن آخر الأديان السماوية ".. لأن معلوماتى الدينية واحد على مائة من معلوماتى الفلسفية"! ("طلع البدر علينا" - ص١٤٥) .. إلا أن تجربة الكاتب الكبير، الذى عرف زمناً طويلاً، بعدم احتفال كتاباته بالقيم الإسلامية، فى زياراته للحج والعمرة .. تستأهل المتابعة. حتى لو كانت انطباعات، كما يقدم "طلع البدر علينا"!

وهذا الكتاب، يحاول مع تناوله لأهم ما تستوعب زيارة الكعبة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم .. أن يلم بتكوين مؤلفه الروحي نفسه. منذ صباه إلى اليوم، مرورا بمراحل الشك، قبل أن يرسو قارب المؤمن فى شبابه بالوجودية والعبث وتحضير الأرواح بالسلة، وغيرها .. إلى بر اليقين الذى يوصله الإسلام.

لقد اعتمد أنيس منصور، أغلب سنوات عمره، على المعرفة البعيدة عن الأديان عامة والإسلام خاصة. وفى فورة ازدهائه بها، ظن أنها النور الأسمى، الذى يضىء ما حوله. ولكنه لم

يلبث أن أدرك -بعد وقت مديد- أنه كان واهماً. وأنه لم يحصد إلا .. "التعب .. أو الإرهاق .. أو الانهدام .. الضياع .. الشتات .. التبدد .. التفكك .. أو التلاشي .. لا أجد الكلمة المناسبة". وفجأة رأى "ما لم أر .. وسمعت ما لم أسمع .. شيء رطب مضيء مريح منعش في داخلي. انفتح شيء .. أطل شيء .. امتلأت بشيء .. تسرب من داخلي شيء .. واهتديت إلى الإسلام أبسط الأديان وأكثرها تجريداً وأعمقها فهماً للإنسان والعلاقات الإنسانية، وأن تشريعه شامل .. وأن كل شيء فيه لم يقع له تحريف".

ويكتشف أنيس منصور، أن الإنسان حيوان متدين .. "أي لابد أن يجد تفسيراً لما يراه وما يفكر فيه .. وما يخاف منه .. وما يطمئن إليه .. ولذلك فكل إنسان له دين. الذى يؤمن والذى يكفر. دين سماوى أو أرضى أو سياسى أو اقتصادى".

ورحلة كاتبنا النفسية والروحية، فى الزمان والمكان، تلم بعدد من القضايا الهامة. مثل معرفة الله .. التى تبين دائماً، ومع كل بحث عميق طويل إزاءها، أن قدرة الإنسان العقلية .. أضأل كثيراً من أن توصل صاحبها، إلى هذه المعرفة .. بينما الوجدان يتمكن من أن يفعل. ولذا كان المؤمنون "أعمق إحساساً بكل الحقائق المعقدة التى عجزت عن الإيمان بها".

ويناقش أنيس منصور، قضية الشيطان. إنه لا يتجسد فى إبليس فحسب، بل فى نفوسنا أيضاً. "إن الذى رأيناه فى نهاية الحج يستحق أن نكرره بعد ذلك، بشرط أن نرجم أنفسنا .. فكلنا لبعض شيطان، أو كلنا هذا الشيطان". ويقول كاتبنا فى موضع آخر: "فالشيطان هنا تحت ملابسنا .. فى جلودنا .. والنزعات الشريرة مثل كريات الدم الحمراء، إذا كانت النزعات الخيرة هى الكريات البيضاء. الشر والخير معاً. النور والظلام معاً. الحياة والموت معاً".

ويتحدث أديبنا عن المعرفة .. ومن رأيه أن المعرفة ليست فقط هى "التى تولد الإيمان، ولكن الإيمان أيضاً يولد المعرفة". كما أن المعرفة "لا تستحق اللعنة، إلا أنها ضوء إلى الإيمان، وأن الإيمان لا يستحق اللعنة لأنه راحة فى الضوء وفى الطريق، إلى أن نعرف أنفسنا وغيرنا، فنعرف الله والكون .. على قدر ما نستطيع!".

ومما أتيح لأنيس منصور، فى زيارته للأماكن الإسلامية المقدسة .. ولم يتح كثيراً لغيره من المسلمين .. دخوله قلب الكعبة. فقد دخلها كما يقول -حتى صدور كتابه -الطبعة الأولى- عشر مرات. أربعاً وراء الملك فيصل، وأربعاً وحده، ومرة وراء الرئيس جعفر نميرى، وأخرى وراء الرئيس السادات. وقد سجل كاتبنا، هذه اللحظة العظيمة النادرة، فى حياة أى مسلم ومؤمن، بقوله: "وغمرتنى الراحة وأحسست أن شراييني من النيون الهادئ .. بلا حرارة ولا صوت .. وأننى فى حالة بين الحياة والموت .. فلا أنا حى

أشعر بجسمي، ولا أنا ميت بلا جسم .. ولكني فوق وجسمي تحت .. وخط رفيع يربطني بالاثنين .. وعندما خرجت من الكعبة أخذت أشعر بجسمي قطعة قطعة .. حتى أصبحت ثقيلاً على وجداني وعلى فكري .. وأعيدت لي حياتي العادية".

ومن الأماكن التي زارها كاتبنا أيضاً، غير الكعبة ومسجد الرسول .. ولها في تاريخ الدعوة الإسلامية، موقع كريم .. غار حراء في جبل النور. الذى كان يتعبد فيه الرسول قبل البعثة، ونزل الوحى على النبي فيه لأول مرة. لقد أراد أنيس منصور، كما يقول، أن يكون على مقربة من مكان تغيرت فيه الدنيا .. حيث هناك "متنفس رجل عظيم .. هناك .. فوقه .. كان الرسول وحده مع الله وحده .. كانت السماء تعد جسمه لأن يكون جهاز استقبال فريداً .. يستقبل كلمة الله التى هى السماء والأرض وما بينهما .. إن جسم الرسول لابد أن يعد إعداداً خاصاً .. لابد أن يروض على الصفاء أكثر، والنقاء أشد، والإحساس أرهف .. لابد أن يتعرض للضوء الباهر ليعاد ترتيب خلاياه وذرات عقله وقلبه .. وفى هذا الغار، فى هذه الغرفة الصخرية وعلى هذا الارتفاع وفى مواجهة نور السماء، أعيد تكوين الرسول ليقدر على أن يتحمل الضوء الآلهى والصوت الملىء والكلام المنزل".

و لم يستطع المؤلف أن يدخل الغار، لأن بابه قد سد .. لتزاحم الناس عليه والمبيت فيه .. بعد قطع الرحلة الصعبة إليه، التي يموت فيها الكثيرون.

لقد شكلت المقطوعة العذبة المشهورة، في التاريخ الإسلامي .. التي غناها بنو النجار في المدينة، في استقبال المهاجر العظيم القادم من مكة ..

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

شكلت وتشكل في وجدان المسلمين دائماً، أغلى الذكريات .. في كفاح الدعوة الإسلامية. ولعل في استعارة أنيس منصور، مطلع الأغنية .. عنواناً لكتابه .. ما يجعل القارئ وهو يستعيد هذه الذكرى. أن يتنسم ما تبعث القيم الإسلامية الرفيعة في حياة المؤمن.

حسن عبد الله آل الشيخ وقيم إسلامية

تتسم الكثير من معالجات الكاتب السعودى .. حسن عبد الله آل الشيخ، باللمسات الإسلامية. انطلاقاً من قدرة دين التوحيد، على إقامة حياة متكاملة متطورة .. تصلح للدنيا كما تصلح للآخرة. وأن الأمل فى استعادة العرب والمسلمين، لماضيهم الزاهر وحضارتهم العالمية .. معقود على إيمانهم الحقيقى بقيم الإسلام. ومن هنا يرى كاتبنا، أننا "مطالبون بحماية كلمة الله مهما تكن الظروف والحالات، عملاً وقولاً .. وبكل الوسائل والإمكانات".

وقضايا كثيرة تناولها كاتبنا الإسلامى، من أهمها افتقاد الصدق فى المجتمع المسلم. فبالرغم من أن دين التوحيد، جعل للمسلم وجهاً واحداً فقط .. يضم الأرض والسماء معاً. لأن الإيمان الحقيقى هو الباطن والظاهر، وهو الصدق .. صاحب الملامح الواحدة التى لا تتغير. إلا أن أغلب المسلمين، يصرون على أن يكون لكلٍ منهم وجهان أو أكثر. يختلف كل وجه عن الآخر، اختلافاً بيّناً. حسب ما يخطط من استغلال أو مكسب حرام.

وهكذا تشكلت أبشع الظواهر فى حياة المسلم. "من بين تلك المتناقضات التى نحياها ونعيشها فى حياتنا المعاصرة، التباين الكبير والمريع بين ما نعتقد وما نفعل، فالإسلام كما نعلم جميعاً قول وعمل، عقيدة وسلوك، لا مجال فيه أبداً للقول بلا عمل، أو للاعتقاد بلا تطبيق .. إن المسلمين أو أكثرهم يكتفى بالانتساب إلى الإسلام دون التقيد بواجبات المسلم وسلوكه"!

وهذه الظاهرة، تسمم بلا شك منابع الحياة .. فى كثير من جوانب تنفس المسلمين. ومن القضايا العديدة التى تعكسها ويتناولها كاتبنا .. قضية تشويه المعانى. يقول حسن عبد الله آل الشيخ مثلاً .. "لست أجد صفة نظلمها كل يوم ونحملها ما لا تحتمل ونطلقها على ما يخالفها كما هو حالياً مع (الإخلاص) فكلنا ندعيه، ونخدع به، ونكذب بمدلوله".

وموقف أديبنا من قضية الإخلاص، هو موقفه من قضية أعم وأشمل .. هى قضية تنقية القيم الإسلامية الحقيقية من الشوائب. التى علقت بها طوال عصور الجهل والجمود وغلق باب الاجتهاد. لقد تغير مدلول الكثير من الكلمات، بفضل انتشار النفاق والكذب والوصولية. وبعدت الصلة بين المغنى والتطبيق. وإزاء الخلط فى المفاهيم .. خلت الألفاظ من الجوهر. ومع رواج العملة الزائفة البراقة، توارى المعدن الأصيل. واكتفى المسلمون بمظهر الأشياء، الذى لا يكلفهم جهداً ولا معاناة بأى شكل من الأشكال.

ومحصلة آلية العبادة، والتظاهر السلوكى، والافتقار إلى الروح .. هو الالتفاف أكثر حول الذات، واستبشاع العطاء والتضحية .. بعد أن أصبح استغلال الآخرين، هو القاعدة. وهكذا تبلع استنامة التنفس إلى الذل، وتقديس المال والمنصب، واحتقار المثل العليا!

وهذا الواقع البشع، الذى آل إليه الكثير من المجتمعات الإسلامية، فرض على رواد اليقظة والمصلحين .. أن يقرعوا الأجراس، ويعملوا على توعية الجماهير. خاصة الأجيال الجديدة، التى فرق بينها وبين الاتصال الوثيق بالقيم الإسلامية الأصيلة، فى البلاد العربية المحكوم أغلبها بالحديد والنار. ويشارك كاتبنا فى المهمة المقدسة، ويربط بين النبض الإنسانى، ومارسم الله لعباده الصالحين.

"فالإخلاص ليس وصفاً ندعيه ثم نخالفه، وليس شعاراً نرفعه ثم نمزقه، ولكنه إيمان كامل بالمبدأ وتطبيق له ثم دفاع عنه .. (والمخلص لله) يؤمن به، وينفذ تعاليمه ويبتعد عن محارمه. و(المخلص لدينه) تمتلئ نفسه بالقناعة به ثم يتمثله واقعاً وسلوكاً، وهو يدفع عنه الكيد والأذى فى بسالة وصبر وصمود، لا يبتغى لسعيه ثواباً إلا من الله، ولا لجهده شكراً إلا منه، وسواء لقى فى واقعه يسراً أو وجد كل عسر، وسواء رضى الناس كفاحه أم أبوا، فهو قانع بما يصنع مؤمن به منقطع لتحقيقه".

ويستعرض كاتبنا، واقع العالم الإسلامى. ويقارن بين ما تعده له عقيدته، وبين ما أعده هو لنفسه. وإذا البون شاسع، بعد أن تنكب الإنسان المسلم طريقه .. وبعد عن دينه. ويكون تخففه من مسئوليته، هو بداية انزلاقه. ويجد حسن عبد الله آل الشيخ، فى قيمة المسئولية فى الإسلام .. أعظم مؤثر فى الحياة البشرية. الذى يجعلها دائماً على مستوى العظمة، التى أرادها الله، لخلافة ابن آدم على الأرض.

إن الإسلام لا يفصل بين الفرد والمجموع .. لا يجعل صالح أحدهما على حساب الآخر، كما تفعل النظم الرأسمالية أو الماركسية .. على حد سواء. جعل المسئولية قيمة إنسانية، يتمتع بها كل مسلم .. بين حديها الأقصى والأدنى. فى سبيل إقرار الحق وسحق الباطل، وتأصيل الخير والعطاء والقضاء على الشر. كما تجسدها الإشراقة النبوية .. "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"!

يقول داعيتنا .. المسئولية فى الإسلام واجبة لازمة لا يستثنى منها أحد، تتعين على أقوام فى صور أوضحتها شريعة الله ولا يعفى ذلك غيرهم من أدائها والالتزام بها. فالمسلم أينما كان مسئول عن معالجة وإنكار كل أمر يخرج عن تعاليم دينه وآدابه. ومسئول عن دعم وتأييد كل ما يأمر به الدين ويريده .. فى نفسه وأسرته ومجتمعه وفى الناس أجمعين .. بما يملك من القدرة، وبما يستطيع من الأمر. وإلا فما المعنى إذن لإيجاب الإنكار بالقلب لمن عجز عن ذلك بيده أو بلسانه؟ وذلك أضعف الإيمان. وأدنى مراتب المسئولية، التزام المسلم

بالیقظة الكاملة لكفاح كل ما يتنافى مع دينه ومبادئه وهو الكفاح البانى الذى يفرض كرامة المؤمن ويبرز أثره".

ويصور أديبنا فى موضع آخر، محصلة قيام الإنسان المسلم بهذا الالتزام .. أو ما يفجر الإيمان بالمسئولية بقوله: "الشعور بالمسئولية هو السر الذى يكمن دائماً وراء الإنجازات الموفقة والبارعة، وبقدر شعورك بمسئوليتك تدفع بكل طاقاتك للإبداع والكفاءة. ولا تصاب الأمم فى كل مراحلها بأدهى من فقدان أبنائها لهذا الشعور وقناعاتهم بالخمول والتواكل، وبحثهم عن الأسهل والأخف .. بينما نجد أمماً أخرى يتمتع أفرادها بالإخلاص وحياة الضمير ومراقبة الله .. قد حققت لنفسها ما لم تحلم به من رفيع المنزلة وعالى المكانة".

نعم، إلى هذه الدرجة، كان استهداف الإسلام وتأصيله لقيمة المسئولية العميقة .. فى حياة الفرد والمجموع معاً. ومع أن الإسلام، لا يستثنى أحداً من المسئولية .. كبيرا أو صغيرا. رجلاً أو امرأة .. رئيساً أو مرءوساً .. إلا أنه يركز أكثر على القيادة. فإذا كان المواطن العادى، مسئولاً عن نفسه وأسرته وأقرب الناس إليه .. فى المقام الأول. فإن الحاكم مسئول عن جماهير الشعب كلها. ولذا فإن كاتبنا، لا يغفل عن أن ينبه مراراً .. على كل المستويات الرئاسية، إلى هذه الناحية. التى يكره كثير من الحكام العرب والمسلمين أن يذكرهم بها أحد!

وجانب المسئولية، من أهم الجوانب احتفالاً، فى معالجة حسن آل الشيخ. ولاشك أن ذلك يرجع أيضاً .. إلى مزاولة

صاحبنا للوظائف العامة والعليا فى الدولة التى أتاحت له الوقوف، على أدق خلايا العمل الوظيفى. وفى عرض ما كابد موظفنا الكبير في هذا المجال، وهو كثير .. يقف المتلقى على إحدى مآسى الحياة العربية. وهى استحواذ جماعات من أصدقاء المسئولين، ومن يدورون في فلكهم من السماسرة .. على أطايب الخدمات .. التى لا حق لهم فيها. وذلك على حساب الشعب، خاصة طبقاته الكادحة.

وهكذا عن طريق الوساطة، والإلحاح فى طرق باب الوزير .. الذى لا يتاح لكل مواطن بالطبع، يشيع الانحراف. ومثل هذا المسئول، يعده أصحاب الوساطة .. نجماً لامعاً! أما إذا لم يستجب الموظف الكبير، أو الوزير .. فهو غير كفء وغير متعاون! "وتقال عنه الأقاويل ويوصف بكل النعوت ما يستحق منها وما لا يستحق"!

ولكاتبنا كلمات طيبة فى هذا المجال، مثل قوله .. "ليس الخطر من (الوباء) يزحف ليلتهم قرية آمنة أو (الفيضان) يتخطى التلال ليغمر الأودية والمنخفضات بأكثر من طغيان (المجاملة أو المحسوبية) على حساب مصلحة الجميع .. إنها تدمر وتحطم وتسىء. وخير لك أن تغضب واحداً من أن تسىء إلى أمة بتشويه واقعها وتحطيم جهود أبنائها".

والمسئولية تعنى بشكل آخر، القدوة. والإسلام يؤكد على المثال .. الذى يجب أن يكونه كل مسلم .. بالنسبة إلى نفسه وإلى الآخرين. ولأن عقيدة التوحيد، هى للأرض والسماء ..

وضد تقسيم بين ما ينتمي إلى المـادة، ومـا ينتمـى إلى الـروح. وإعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر .. فهى تكـره أن يشـكل حديث المسلم شيئاً، وسلوكه شيئاً آخـر عكسياً. وهكـذا تشكل القدوة، وفى الحاكم قبل المحكوم .. حجر الأساس فـى بناء العالم الذى يباركه الله.

ويتناول حسن آل الشيخ، القدوة الإيجابية والقدوة السلبية. الأولى التى تنشر الخير، والثانية التى تذيع الشر. ويتوقف عند الأخيرة، لأنها أكثر خطراً فى هدم المجتمع.

"إن القدوة واقع حازم يترك أثره العاجل خيراً أو شـراً، بـل ربما كان "الشر" فى القدوة المنحرفة بعيد الأثر، عميق التأثـير. ولذلك كان الخليفة الراشد عمر بن الخطـاب رضـى الله عنـه، إذا أراد أن ينهى المسلمين عن أمر، جمع أهـل بيتـه فقـال لهـم: إننى سأنهى المسلمين عن كذا، فمن جىء لى بـه منكـم بفعلـه ضاعفت له العذاب"!

وكتابة حسن عبد الله آل الشيخ الإسلامية، لا تخلـو مـن الحديث عن أعداء الأمة الإسلامية .. خاصة دعـاة الشـيوعية. لـذا فهـو شـديد الهجـوم علـى الماركسـية وإدانتهـا. ويتـابع محاولات تسللها أو تآمرها، على البلـدان العربيـة والإسـلامية. ويستحضر أخطارها فى كثير من المجالات. "القوى اليسارية، والقوى التقدميـة، والقـوى الثوريـة، شـعارت تختفـى وراءهـا الشيوعية الملحدة بمساوئها وأهوالها".

ويتوقف كاتبنا يوماً، عند العوامل الكثيرة .. غير الإلحاد، التى تفرض على المسلمين .. عداوة الماركسية. فيشير إلى ثلاثة جوانب .. الأول؛ دعوة الإسلام إلى الوحدة الحقيقية .. وحدة القلوب والأيدى والمشاعر. بينما تدعو الشيوعية، إلى صراع الطبقات .. وتعريض البلاد للحرب الأهلية. والثانى؛ يقدس دين التوحيد، الكرامة الإنسانية فى كل مجالاتها .. حامياً حقوق الفرد، ما دام يؤكد صالح الجماعة. والعكس عند أتباع ماركس وإنجلز ولينين، الذين يريدون من الفرد "أن يكون منفذاً لمطامعهم وحامياً لباطلهم". أما الجانب الثالث؛ فهو السلام. الذى يشيع فى الإسلام، مناخاً أصيلاً ينفث الاطمئنان والحب والتقدم. وتصل رفعة شأنه عند المسلمين، إلى أقصى درجة. لا يلقى مثلها عند أصحاب دين آخر، أو فلسفة أخرى. ويصبح السلام، هو تحية المسلمين .. التى تتضمن رحمة الله وبركاته!

بينما يتحول السلام عند الشيوعيين، إلى مجرد لافتة كاذبة مخدرة .. تعمل على خداع الجماهير. وينفقون أموال شعوبهم فى التآمر والخيانة وتقويض المجتمعات الآمنة، وتسليط حفنة من الناس على الأكثرية العزلاء".

والروح الإسلامية المتغلغلة فى تكوين حسن الشيخ، تسيّر رؤية صاحبها. وتجعله يتخذ من المواقف الصريحة، خاصة المنعكسة على السياسة .. ما تجعله هدفاً لتجار الشعارات، وما أكثرهم فى بلادنا العربية. كما نجد مثلاً فى موقفه من الإسلام بالنسبة إلى العروبة. فإذا هو يجهر، بأن دين التوحيد

فوق العروبة والقومية. لأن الإسلام، يحطم كل الحواجز التى تقف ضد الأخوة الإسلامية.

ومن هنا تجىء دعوته، التى يكثر من المناداة بها .. وهى التضامن الإسلامى. ليكون أصحابه "قوة مؤمنة با لله، مؤتمرة بهديه وإرشاده وليدافعوا عن قضاياهم بعيداً عن القوميات والعصبيات". "لقد قال أخ مسلم من الباكستان: إن من يحارب اليوم دعوة المسلمين للإخاء والتلاقى هم أشد أعداء الإسلام وأحقدهم .. ومهما تلمسنا لهم الأعذار فلن نجدهم إلا الأعداء لدين ا لله المحاربين لانطلاقاته".

ويقظة الشعوب الإسلامية، أو تجسيد وحدة الإسلام .. ليست كما يدعى أعداؤنا والضعاف من قومنا .. عملاً مستحيلاً. فما أكثر الشعوب التى كانت أسوأ حالاً منا، ومع ذلك استجمعت إرادتها وقواها .. وتحررت من ضعفها وأعدائها، فى الخارج والداخل .. ووثبت نحو القمة. إن مسلم اليوم أو مسلم عصور الجمود، لا يمكن أبداً أن يعكس الإسلام الحقيقى. بل هو على العكس، يجد من القرآن .. تنديداً واضحاً به وبمفاهيمه وبنموذجه الشائه. لأن الإسلام على الضد من قيم هذا المجتمع المتهالك .. قوى حر عملاق.

إن الدعوة إلى صحوة الشعوب الإسلامية، لتقوم بدورها الذى أعده لها دينها .. هى أكثر الدعوات الواقعية. وليست كما يزعم المنهزمون من المسلمين وأعوان التغريب والماركسيين. يؤكد ذلك عدة أشياء؛ أهمها أن الإسلام لا

يزال أكثر الصيغ تقدماً وملاءمة للإنسان المتحضر. كما أنه لمئات من الأعوام، كانت له حضارته العالمية .. التى تقدمت بالبشرية خطوات إلى الأمام. ومن ناحية ثالثة، فإن تكوين الإسلام المؤثر الفعال .. باتفاق تعاليمه مع فطرة الإنسان الذكية، ومع مخاطبة العقل والوجدان .. يجعل وحدة الإسلام "أقوى من الآلام وأنفذ من الحواجز .. بل هى القوة الوحيدة التى لا يستطيع الأعداء قهرها .. أو إذلالها لأنها لا تعترف بالماديات .. والمظاهر .. بل تفرض وجودها كالقدر المبرم يوم يتجه المسلم إلى الله ليصلى له أو يدعوه".

والتعايش الذى تجده كتابات حسن الشيخ، يجىء بالدرجة الأولى .. من رؤية تتحد فيها قيم التوحيد بحاجة العصر. وتتحدث لغة تستجيب لنبض التنفس اليومى. ففى نفس الوقت الذى يناقش فيه كاتبنا ما يعرض للإنسان العربى والمسلم المعاصر فى واقعه من هموم وأحلام وقضايا .. يستهدى تناوله توجيهات فاطر السموات والأرض. ولذلك فلا عجب أن يتكرر فى السياق، كلمات تصور العلاقة الحميمة .. التى تربط بين العبد وربه.

هذا الامتزاج بين حاجات الدنيا والآخرة، والأصالة والمعاصرة .. هو الذى يضفي على أسلوب كاتبنا .. نكهته الإسلامية أولاً، والمميزة ثانياً.

وساعد على معايشة المتلقى مع معالجة حسن عبد الله آل الشيخ .. أن كاتبنا لا يحب الإطناب، بل يميل إلى التركيز.

الذى يصل إلى غايته فى لمساته السريعة. وهى التى يطلق عليها "خواطر سريعة" تستوعب أعماق الأشياء. والكثير منها أشبه بالحكم، التى تضرب على وتر حساس .. من الخبرة والموضوعية والاتزان. نختار منها هذا الكلمات:

• ظاهرة مؤسفة ألا يجد الناس لذة الضراعة إلى الله ودعائه إلا خلف أبواب غرفة العمليات أو حول أسرة المرضى .. أو قبل موسم الامتحانات!

• أقسى الأزمات ليست هي أزمة النقد لكنها أزمة الثقة عندما تبحث عمن تثق به فلا تجده.

• استسلامنا الدائم لتبرير واقعنا يجعلنا أبطالاً فى التجاهل واللامبالاة.

• لا تنزعج من سطوة الباطل وإن كثر أعوانه فهو ذليل أمام الحق وإن كان وحده.

• حكمة لها معنى (صغار قوم كبار آخرين).

• قال لصديقه: هل تتصور خلو إنسان من العاطفة والرحمة؟ فقال له: نعم إذا فقد ثقته بنفسه وابتعد عن تعاليم ربه وغرته الحياة الدنيا.

• حتى المروءات تحتاج أحياناً إلى تغذيتها بالوفاء وعرفان الجميل.

• أعمال المخلصين لها رنين يملأ آذان الأوفياء دون سواهم.

• الذى يعمل الخير ويصر على حصول ثوابه عاجلاً هو مع إيجابيته محتاج إلى تدعيم إيمانه بربه.

• حتى ولو لم تؤذ غيرك فلا تدهش لما قد ينالك من أذى غيرك.

• نصيحتى –وأنا أحوج الناس إلى من ينصحنى– نصيحتى إلى كل مثقف فى بلادى أن يسعى بكل جهده لتعميق الوعى الإسلامى فى نفوس الشباب وكل من يلقاه لأننا دون ذلك كقطيع من الغنم دون راع.

• الحياة تبدو باهتة عندما ينعدم فيها الإخلاص، وتبدو كريهة عندما يضعف بين الناس اهتمامهم بأمر الله ونهيه.

• إن من يفتح عينيك على أخطاء الآخرين دائماً دون محاسنهم يتجاهل فيك نصف عقلك.

• الوفاء فى أكثر صوره أغلى من الحب .. لأن الحب قد يكون انفعالاً، بينما يبقى الوفاء دائماً قريناً للأصالة الراسخة فى واقع كل النبلاء.

• الفكر يخبو بالغفلة، أو بعدم حمله على الاعتبار مما يلقى من تجارب سلبية أو إيجابية، ويزداد قوة وصفاء كلما عمدنا إلى تعويده على استيعاب ما يلقى واستخلاص الأمثل مما يواجه.

• قد أحتاج إليك لأنه لا غنى للأحياء عن بعضهم فيما يقدرون عليه .. لكننى أجانب الصواب والمعقول إذا علقت صلاتى بك بمقدار دافع حاجتى إليك.

• ما أشد مسئولية المعلمين والآباء إنهم لو أدركوا أبعادها لتقلص الكثير من مظاهر الانحراف والشذوذ.

• من أصعب الأمور أن تواجه فاشلاً بواقعه لكنك إن لم تفعل ذلك بلباقة تظل متواطئاً على تشويه الحقيقة، أو متأثرا بالمتناقضات منه.

• إن كنت غير مستطيع أن تنصر الحق فلا ترحب بالباطل.

• أستطيع أن أتحمل كل تجربة إلا أن يتظاهر إنسان بالدعوة لدين الله لكى يبرز من خلال تلك الدعوة.

• جهود مخلصة لا يحتفل بها أحد، وأخرى تافهة تشغل الناس بالحديث عنها، وتبقى (الحقائق) بين الجهل والتجاهل.

• ليس المهم أن تعلم ولكن الأكثر أهمية أن توفق للعمل بما علمت.

• العجيب أن تعبيرات عيون الكثيرين تفوق قدرتهم على الحديث.

• سر النجاح أن تتجاهل إنجازاتك، وأن تتعلم ممن هو أعلم منك، وألا تفارقك القدرة على الاستمرار.

• زهد العلماء الصالحين فى خوض غمار الحياة يفقد الحياة أفضل مصدر لنمائها واستدامة إشراقها.

• ليس مشكلاً أن يعصى الخلق خالقهم فهم معرضون لذلك .. ولكن الأمر الخطير أن يعتبروا المعصية أمراً مألوفاً وممكناً وعادياً.

• حكمة لها معنى: قيل لأعرابية: ما الجرح الذى لا يندمل؟ قالت: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده.

• النبلاء تؤنسهم فى وحدتهم مشاعر الرضى من ضمائرهم، وغيرهم (تقبرهم) فى وحدتهم أحقادهم فلا يشعر بهم أحد.

• الإخلاص له بريق لامع وإن عميت عن اكتشافه آلاف العيون.

• من أقسى أنواع الظلم الحكم على (الأمة) بتصرف بعض أفرادها. أو الحكم على (العقيدة) بما يفعله بعض الخارجين على آدابها والتزاماتها.

• ميادين المحبة لا تضيق أبداً بقاصدها، وسراديب الكراهية لا تتحمل أى قصّاد لأنها ضائقة بأصحابها.

• المديح الكاذب قرين مماثل للغيبة الظالمة.

• قال لى بألم: لماذا تتكاثر الجرائم وأعمال عنف فى المجتمعات الإسلامية؟ قلت: لأنها لم تعد إسلامية.

• كل شيء يمكن أن أقبل سماعه إلا مطالبة أب مسلم أن أسمح له بابتعاث بناته إلى خارج وطنه المحافظ.

• إذا طالبتني بما لا أملك الوفاء به فأنت تدفع بي إلى أمرين: إما التضحية بعلاقتي بك، أو التضحية بأمانتي في سبيل إرضائك.

• عندما تكون قيمة الرجل بماله فقط نجد أن كل المثل والاعتبارات تعبر بمرارة عن تجاهلها.

• عون الله للمرء يجعله السباق فيما يفعل ولو قاومته كل قوى الأرض.

مسلمون لا نخجل

أسماء إسلامية شابة جديدة، بدأت تظهر فى سماء حياتنا الفكرية والثقافية، مشاركة فى معالجة قضايانا على مختلف ألوانها. ومن هذه الأسماء الأديب القاص حلمى محمد القاعود، الذى نقدم له اليوم مؤلفه "مسلمون لا نخجل".

والكتاب مجموعة مقالات تتناول موضوعات متباينة فى الحياة والأدب تنطلق من مفهوم أن الإسلام "لابد أن يدخل كل مناحى حياتنا، ويتسرب إلى جميع مسامنا، وأن تصبح كل الأشياء فى ضوء الإسلام، وأن تتحرك على هديه ووفق مقتضياته: الدين والسياسة والثقافة والاقتصاد".

والمناخ الذى يظلل الأرض العربية والإسلامية، يكاد يفقد الأمل فى الخلاص من الهموم الثقيلة التى ترزح تحتها. ولكن نفس المناخ يدفع المخلصين للإسلام، إلى المزيد من الجهد والتضحية فى سبيل بلادهم العريقة. وأهم العلل التى تقعد بالأمة الإسلامية والعربية عن الوصول إلى القوة والمنعة والعزة، واللحاق الحقيقى بالركب الحضارى، هى كما يرى صاحب "مسلمون لا نخجل": إحباط عام وشعور بالعجز وعدم القدرة على مجابهة العصر الذى نعيش فيه، غرق فى محيط من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية، تفرق وتشرذم وتشتت وتناحر واختلاف وتطاحن يؤكد للآخرين

أن هؤلاء القــوم سيظلون كذلك وإلى الأبد، ضيـاع للهويـة الحضاريـة والشـخصية الإنسـانية التـى يجـب أن ننتمـى إليهـا، الوقوع تحت سيطرة استعمارية متعددة الألوان.

والعائق الأكبر الذى يكاد يكــون أسـطورياً، ويفسـد علـى الشعوب الإسلامية أمورها قبل أن تكون سلبيتها نفســها، هــو شعور الكثير من المسئولين "بـالخجل مـن عقيدتهـم الأساسية وأيديولوجيتهم التى أعطاها لهم ربهـم .. أعنى الإسلام"!

مما ينعكس فى عدم إقرار مشــروعات قوانين إسـلامية فـى المجالس النيابية. وتجاهل وســائل الإعـلام التـى تسـيطر عليهـا الحكومات لأحداث العالم الإسلامى، ومحاولـة الغـرب احتـواء الإســلام باسـتثمار بعـض جوانبـه فـى فكـره الأوربـى لخــداع الشعوب الإسلامية. وعدم الاعـتزاز بمـا يعكـس الإسـلام فـى الهوية والشخصية، من تســمية الأبنـاء بأسمـاء غـير إسـلامية أو عربية وغيرها. وكذلك التفريط فــى اللغـة العربيـة، وتهـافت النظام التعليمى وفشله فى تخريج المواطن المسلم الحقيقى ..

وإذا كان هــذا هـو حـال الكثـير مـن المسلمين وحكـامهم أيضاً، بالنسبة إلى التخفف مـن دينهـم أو تجاهلـه، فـإن الأمـر على العكس عندأعداء المسلمين .. سواء أكانوا الإسرائيليين أو الغربيين بشكلٍ عام. فإسرائيل تفخر أنها قامت علــى الدين، وتتحدث دائماً عن أنها حققت وعد "يهوه". كما تحــترم مـا يتصل باليهودية فى المظهر والمخبر ..

"كان الجنود الإسرائيليون يعلقون فى صدورهم، ويحملون فى جيوبهم التوراة، ويقبلون سيناء عندما احتلوها فى العام السابع والستين اعتقاداً منهم بأن هذه من الأرض الموعودة. بينما نحن كنا نخجل من ذكر البسملة، وكان من يضمن حديثه شيئاً من آى القرآن، يسلكونه فى عداد الرجعيين والمتخلفين و .."!

إن الدين فى العالم، يقابل بالاحترام من الكبار والصغار، حتى لو لم يكن للدولة دينها الرسمى، والحفاظ عليه هو سمة الأقوياء، سواء كانوا اليابان أو الإنجليز. يقول القاعود: "هناك من ينتمون إلى النوادى الرياضية بصورة هستيرية، تعبر عن انحطاط حضارى لم يشهده وطن آخر، وتسأل هل يمكن أن يحظى الانتماء إلى الإسلام بشىء من التعصب الذى يكنه البعض للأهلى أو الزمالك؟! "وهناك من ينتمون إلى "الناصرية" .. نسبة إلى الطاغية المهزوم جمال عبد الناصر .. ويعتبرون هذه الناصرية عقيدة لا تقل بحال من الأحوال عن عقيدة الإسلام إن لم تفق عليها!

"إن المسلم يجب أن يفخر بإسلامه، ولا يخجل .. لأن الدين عند الله الإسلام، ولأن كل نبى من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كان يفاخر بإسلامه ولا يخجل منه، بل إن حوارييهم كانوا على نفس الطريق" ..

ليس من الطبيعى أن يغفل كاتب إسلامى معاصر، عن الشيوعية وعدائها للأديان عامة وللإسلام خاصة .. فى تناوله

للقضايا الإسلامية والعربية، وكذلك فعل صاحب "مسلمون لا نخجل" وهو يهتم في كتابه بجانب معين بالذات في هذه القضية! وهو ادعاء الشيوعية بالتعايش بينها وبين آخر الأديان السماوية، وبلفظ آخر الزواج بين الماركسية والإسلام، وهي نغمة تتردد هذه الأيام بالذات، تشكل آخر تكتيكات الفلسفة المادية للإطاحة بالإسلام من الداخل.

نعم فالماركسيون لا يخجلون من إطلاق هذه الدعوى، للإحاطة بالمسلمين السذج الذين تخدعهم الشعارات الجوفاء، بينما يتعرض المسلمون في الاتحاد السوفييتي خاصة في المناطق الإسلامية العريقة في آسيا لمنتهى الامتهان والإهمال والتعذيب والاعتقال. يقول القاعود: وهذا التكتيك المرحلي الذي يعتمد على إعلان التصالح بين الماركسية والإسلام، لن يقدر له النجاح، لأنه خداع معروف، وقد حاول الماركسيون في إيطاليا والبرتغال والعراق تنفيذ هذا التكتيك في إطار آخر، وهو قبول الحكم الائتلافي في هذه الدول تمهيداً للسطو على السلطة تماماً، وحينئذ يحققون إيمانهم الأصيل بحتمية الصراع الطبقي دموياً، ومن ثم يسقط التصالح مع أي فكرة أو عقيدة تخالف أفكارهم وعقائدهم وشرائعهم.

ويلتفت مؤلفنا إلى النكبة التي ألمت بمصر في أيام الحكم الناصري، وهي تقع تحت سيطرة الشيوعيين وأذنابهم، وكانت النتيجة هزيمة حرب ١٩٦٧، وعندما طرد الخبراء السوفييت

وتخلصت البلاد من القيادات الماركسية، أذن ذلك بانتصار .. وكانت حرب رمضان وإيمان الجند.

ومن الموضوعات التى عرضها القاعود أيضاً، جوانب من فكر وحيد الديس خان ونجيب الكيلانى ومصطفى محمود، وكذلك مواقف يدين فيها غالى شكرى بالتعصب.

إن "مسلمون لا نخجل" .. دعوة إلى مناقشة القضايا الإسلامية واتخاذ موقف منها.

نساء في حياة الأنبياء

تكتسب الاهتمامات الروحية والكتابات الإسلامية فى السنوات الأخيرة، كل يوم جهوداً جديدة من القراء والكتاب على حد سواء. وأهم ملامحها مساهمة أقلام لم يشتهر عنها الكتابة الإسلامية. وفى هذا السياق يأتى "نساء فى حياة الأنبياء" لمأمون غريب.

رحلة فى الزمان تواكب حياة بعض الأنبياء عليهم السلام من أب البشر آدم إلى محمد صلوات الله عليه ومشاركة المرأة فيها .. فهى تعرض أيضاً لهذا الجانب عند نوح وصالح وإبراهيم ويوسف وأيوب وموسى وداود وسليمان ويحيى وعيسى عليهم السلام. يعمل مأمون فيها ما أمكن على أن يجيب عن عدة تساؤلات يفجرها اختيار الموضوع، منها: ما هو دور المرأة فى حياة رسل السماء؟ وأين موضعها من الرسالات نفسها؟ هل كن عامل دفع لهم أم أنهن كن فى بعض الأحيان عوائق ضد هؤلاء الأنبياء؟

وكان على مأمون غريب منذ البداية أن يمهد الطريق أمام تناوله بالتخلص من ثلاثة أشياء .. الأساطير التى تحتشد فتحيل الخيال إلى واقع، والأحاسيس المكشوفة خاصة فى التوراة التى لا تليق بنبى، وتخرصات المستشرقين.

وتبدأ قصة المرأة فى حياة الأنبياء، بالمرأة الأولى فى تاريخ البشرية وفى حياة البشرى الأول آدم وهى حواء، ثم تولد المعصية الأولى فى حياة الإنسان وتكون المأساة التى تخرج آدم وحواء من الجنة لتعمر الأرض. وإذا كانت الجريمة الأولى حدثت فى الجنة، فإن الجريمة الثانية فى تاريخ الإنسان كان باعثها المرأة أيضاً وإن وقعت هذه المرة على الأرض، عندما اشتهى قابيل توءمه اقليما الأكثر ملاحة من لبودا -توءم أخيه هابيل- الذى أمره الأب بالزواج منها ليترك الأخرى لأخيه. ويرفض قابيل وينتهى الأمر بأن يقتل هابيل .. وتقع أول جريمة دموية على ظهر الأرض.

ويجىء بعد حواء فى تناول مؤلفنا، زوجة النبى نوح صاحب الفلك والحفيد العاشر لآدم، والتى لم تذكر لها الكتب السماوية اسماً .. واتخذت موقفاً عدائياً من الدعوة الآلهية التى ينادي بها الزوج، فلم تقتنع بها وكانت من الكافرات الغارقات فى الطوفان.

وعلى العكس منها كانت امرأة إبراهيم سارة التى وقفت بجانبه تسانده وتشجعه وتهاجر معه إلى شمال العراق بعد أن ضاق به المكان فى بلده ولم يجد تشجيعاً كبيراً .. وهو نفس ما فعلته هاجر المصرية زوجه الثانية وأم ولده إسماعيل. أما زوجة لوط عليه السلام، فهواها كان أقرب إلى قومها الذين يهوون الشذوذ واستنكروا أن يجيئهم لوط برسالة من السماء تبعدهم عن هذا الإثم وتحرمه عليهم، بل نجدها مؤمنة بحقهم فى مزاولة الفاحشة، ويسعدها أن تيسر لهم أمرها إذا أمكنها

ذلك. وهكذا عندما جاءت الملائكة إلى لوط فى صورة آدمية وسيمة، أسرعت المرأة إلى بعض أهلها تنبئهم بالخبر، ويجيئون متلهفين على المعصية التى تأباها الفطرة السليمة ويحرمها الدين .. ويعرض لوط عليهم ﴿هؤلاء بناتى هن أطهر لكم﴾، ولكن ليس فيهم رجل رشيد -كما يصفهم القرآن- ويهمون بهم، ويفزع النبى، ولكن الملائكة تخفف عنه وتنتقم من المفسدين بطمس أعينهم وإصابتهم بالعمى، مما يضطرهم إلى الفرار معولين.

ويهرع القوم ثائرين مطالبين بالثأر من لوط وضيوفه، وكان الرسل قد اعلموا النبى بغضب الله على القوم الفاسقين وعمله على إبادتهم. وطلبوا منه أن يخرج هو وأهله وامرأته من البلدة على ألا ينظروا خلفهم إذا سمعوا صوتاً، وإلا لحقهم الهلاك. وفعل لوط وأهله ما عدا امرأته التى كانت لا تزال متعلقة بقومها، فالتفتت خلفها .. وما كادت تفعل حتى أصيبت بحجر قتلها فى الحال.

وفي حياة يوسف التى عرضها مأمون غريب، لا تكون البطلة هي زوج النبى أو أنثى من أهله، بل واحدة غريبة لعبت دوراً هاماً فى أحداث عمره، وهى امرأة حاكم مصر التى ربته وقد اشتراه زوجها من تاجر الرقيق الذى انتشله من البئر، بعد أن تخلص إخوة يوسف منه برميه فيه. وعندما وصل يوسف إلى سن الشباب واكتملت فتوته ووسامته، عشقته المرأة .. وراودته عن نفسه، فأبى. وإزاء الثرثرة التى ثارت حول امرأة العزيز، لم يملك الزوج إلا أن يزج بيوسف فى السجن ..

الذى كان أحب إليه من أن يتعرض للانحراف. ولم يخرج من معتقله إلا بعد عشر سنوات وقد احتاجه الملك ليفسر له الرؤيا.

وإذا كان أيوب عليه السلام -حفيد النبى إبراهيم- يتخذ مثالاً للصبرالحكيم، فإن زوجه رحمة حفيدة النبي يوسف تتخذ مثالاً للوفاء العظيم، لقد كان الرجل سعيداً فى حياته .. أعطاه الله وفرة فى كل شىء .. فى صحته وماله وثرائه وبنيه -سبعة أولاد- ولذا كان دائم الحمد، وبعد قليل تتوالى الكوارث .. تنفق الماشية وقطعانه وتتبدد الثروة ويموت أولاده جميعاً فى لحظة واحدة، بعد أن سقط عليهم سقف البيت .. كما أصابه مرض عضال استمر سبع سنوات. ولما كان الرجل عظيم الإيمان، فلم يضعف حمده لله وهو يعرف أنه يمتحن بلاءه.

ولم يكن أيوب وحده هو الذى امتحن بهذه الأرزاء القاسية، بل عانتها أيضاً بنفس الحجم زوجه التى كانت تحبه وتحفظ له عهده وتقيم على العشرة فى السراء والضراء .. فكانت عونه الأكبر بعد إيمانه بالله وحكمه. واستمرت تقاوم معه عوامل الإحباط واليأس يوماً وأسبوعاً وشهراً وعاماً وأعواماً، فوجد فيها النبى الصابر نعم المواساة، حتى استجاب الله إلى ضراعات عبده المطيع ومنّ عليه بالشفاء وأعاد له ما انقطع من الثروة .. بل وأكثر من ذلك بعث له فلذات أكباده الذين ماتوا وأعادهم أحياء من جديد تلبية لدعائه .. فهذا الرجل الذى رضى بقضاء الله وقدره. وصبر على ما أصابه لم

يكن يدرى أن الله سيجزيه خيراً كثيراً على صبره. كما ترى فى قصة أيوب عليه السلام أكثر من معجزة لا تعلل .. بمعنى أننا يجب ألا ننكر المعجزة، وذلك لسبب بسيط جداً وهو أن المعجزة ليست من عند أيوب، ولكن من عند الله سبحانه وتعالى، والله يقول للشيء كن فيكون.

ومثل أيوب ورحمة، كان موسى وصفورة من بيتى نبوة، ينتمى موسى إلى بيت يعقوب عليه السلام أما صفورة فهى الأبنة الصغرى للنبى شعيب، وإذا كانت رحمة قد قاست الأهوال لما أصاب بيتها ورجلها وأولادها من كوارث، فكذلك أصيبت امرأة موسى ولكن لبواعث أخرى جاءت مما لاقاه رجلها وهو يحمل رسالة السماء من إقناع قومه وخيانتهم لعهده.

وكان اللقاء الأول للشاب موسى بصفورة، حين فر من مصر إلى وادى مدين بعد أن قتل المصرى الذى كان يتشاجر مع يهودى، وكان موسى يستريح بالقرب من أحد الآبار التى يسقى منها القوم ووجد فتاتين تنتظران أن تفعلا، فنهض وساعدهما، وعندما ذهبتا إلى أبيهما النبى شعيب، تقصان عليه ما حدث بعث إحداهما لتأتى به -ولعلها كانت الصغرى التى تحمست للذهاب ليجزيه أجر ما سقى لهما، كما يقول القرآن الكريم. ويجيء موسى ويقص على الأب بمحضر من أسرته حكايته، ويتعاطف معه الجميع وخاصة الابنة الصغرى صفورة التى لا تكتفى بهذه المشاركة الوجدانية، بل تقترح حلاً عملياً لمشكلة الشاب الهارب

الراهنة، وهو أن يستأجره أبوها العجوز للعمل معه! وتروق الفكرة لشعيب، ولعل حماس صفورة الكبير واهتمامها الواضح بالشاب الذى ينبئ عن أشياء جعله يفكر فى اقتراح آخر مكمل وهو أن يزوجه إياها .. "إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين" .. ويسعد موسى بهذا العرض .. ولا يحتاج إلى أن يختار فتاته، فقد سبقه قلبه إلى ذلك .. ويتزوج صفورة.

ويمكث موسي عشر سنوات فى وادى مدين وينجب ولدين، ويصل عمره إلى الأربعين ويقرر أن يعود إلى مصر .. ويأخذ معه عائلته وبعض الماشية والأغنام، ويودعه شعيب الذى كان بمثابة أبيه وداعاً حاراً .. ويستمر موسى سائراً حتى يصل إلى طور سيناء. وتكون الليلة شديدة الظلمة والرياح عاوية والبرودة قارصة، ويحاول أن يستوقد ناراً يستدفئ ولكن الرياح لا تتيح، وينظر حوله فيجد ناراً بعيدة، يحمد حظه لا لأنه يستطيع أن يجلب تدفئة فحسب، بل لأن وجود أصحاب هذه النار سيؤنس وحشة مقامهم فى هذه الفلاة. ويذهب صوبها، ولكنه ما يكاد يقترب حتى يسمع صوتاً يناديه، ﴿إنى أنا الله رب العالمين﴾ ويكاد يغشى عليه ولكن الله ينزل السكينة على قلبه، ويأتيه برهان ربه. يلقى عصاه فإذا هى حية تسعى، ويضم يده إلى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء، ويكلفه الرحمن الرحيم مالك يوم الدين بالرسالة داعياً إليها قومه وقوم فرعون. ويعود موسى إلى زوجه نهباً

للفرح والخوف من ثقل المسئولية، وتكـون سعادة صفـورة لا تقدر بما أضفاه الله على كليمه من منزلة، فلقد أصبحـت ابنـة النبي زوجة لنبى كذلـك .. وتـأخذ فـى تهدئتـه وتكـون أول المؤمنين بدعوته.

ويعود موسى إلى مصر حاملاً الرسالة بادئاً نضالـه الطويـل ضد أعداء دينه وضد قومه المنشقين عليه على السواء.

ومن الأنبياء أيضاً داود، الشاب الشجاع الذى استطاع أن يقتل البطل جالوت واستحق بذلك أن يتزوج ميكال ابنة النبى الملك طالوت، حسب وعـده مـن ينقـذ بـلاده. وأصبـح داود قائداً للجيش، وبعد قليل يتغير قلب طـالوت علـى زوج ابنتـه أثر وشايات خصومه واتهامه بسعيه إلى الاستيلاء على العـرش بقتل طالوت، الذى يزمع أمراً، وتعرف ميكال بما يضمر الأب فتبلغ زوجها الذى يهرب خوفاً على حياته. ويحدث أن تقـوم معركة بـين الفلسـطينيين وطـالوت يقتـل فيهـا فينـادى النـاس بداود ملكاً ثم ما يلبث أن يصبح نبياً أيضاً. وقـد أنـزل عليـه الزبور وهو أناشـيد وقصـائد تسـبح الله .. كـان يرتلهـا داود الذى عرف بحلاوة الصوت ويضرب به المثل فى ذلـك ترتيـلاً، ولعل سعادته فى بيته كانت تضفى عذوبة على هذا الإنشاد.

وقصة سليمان وبلقيس ملكة سبأ التى أسـلمت علـى يديـه بعد أن كانت تعبد الشمس، وقيل إنها تزوجتـه .. أشـهر مـن أن يشار إليها.

أما المرأة التي يعرض لها الكتاب في حياة يحيى بن زكريا أو يوحنا المعمدان النبي العابد المتبتل فهي ليست من أهله أو المؤمنين به، بل من أشد أعدائه بغضاً له .. تآمرت عليه وسعت إلى قتله ونجحت في ذلك. ولم تكن النهاية الدامية لهذا النبي الشاب الذي ولد قبل ميلاد المسيح -ابن خالة يحيى- بستة أشهر، تشكل الشيء الوحيد غير العادي في حياته، فقد كان مجيئه إلى الدنيا ذاته حدثاً شاذاً، ظل أبوه زكريا عليه السلام -من نسل داود- حتى بلغ التسعين أو أكثر وهو بلا ذرية أو ولد تقر به عينه كما كان يتمنى، ومع ذلك لم يفقد الأمل مع أن امرأته تجاوزت أيضاً سن اليأس منذ وقت طويل، واستمر يتوجه بالدعاء إلى الله. وبينما كان يوماً في المحراب يصلي بشرته الملائكة بيحيى، ولم يملك مع إيمانه ورغبته في الولد ومع دعائه إلا أن يدهش .. "رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً". ويكون الجواب البليغ "قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً".

وفي بيئة صالحة ينشأ يحيى، ويكون صوت الحق بين الناس يدعوهم إلى العودة إلى جوهر شريعة موسى والتوحيد لله .. ويصدمهم بما عليه واقعهم من احتلال الرومان لبلادهم وتسلط أحبار اليهود على حياتهم والفساد الذي يتنفسون. ومع انتشار دعوته، تزايد أعداؤه وخاصة الحاكم نفسه، وكان هيرودس ملكاً ماجناً مغرماً بالنساء لا يتعفف عن أية واحدة، حتى لو كانت زوجة أخيه أو ابنتهما، وهكذا عشق هيروديا

وفتاتها سالومى وعاشرهما فى نفس الوقت متزوجاً الأولى بينما هو متزوج ودينه يحرم تعدد الزوجات. وأدان يحيى هذا الفحش وجهر باتهامه، فغضب الملك وأودعه السجن ولكن هذا العقاب لم يكف هيروديا الآثمة، فأعدت مؤامرتها لقتله، واتفقت مع ابنتها سالومى على أن تتمنع الأخيرة على هيردوس وهى ترقص شبه عارية ولا تستجيب لشهوته إلا إذا أمر بأن يجىء لها برأس يحيى على طبق من ذهب، وفى البداية استهول الملك العاشق طلب رأس النبى، ولكن الشهوة تضطره ويوافق رغم كل مخاطر ثورة الشعب .. وينجح الشر مؤقتاً.

وتكون السيدة التى اختارها مؤلفنا فى حياة السيد المسيح، هى أمه البتول مريم ابنة عمران .. التى عانت الكثير وهى العذراء التي تلد النبى، والأم التى يريح الابن المكدود رأسه على صدرها. وبعد أن حاول اليهود قتله صعد إلى السماء، عاشت حزينة على فراقه ست سنوات حتى ماتت.

وفى حياة محمد تذكر زوجه خديجة بنت خويلد أول من آمن به من النساء ويلم كاتبنا إلمامة سريعة ببقية نسائه، مهتماً بالوقوف عند الحقوق التى أعطاها الإسلام للمرأة وكرمها بها، وجسدها محمد صلوات الله عليه فى بيته وخارج بيته.

واختيار مأمون غريب لموضوعه الصعب، وبعد الزمن، وصعوبة التحقيق من الأخبار والأحداث إن لم تكن استحالته فى بعض الأحيان، وقلة المصادر التى يطمأن إليها .. جشمته من العناء ما انعكس على تناوله ذاته، فبدت بعض فصول

الدراسة غير مستجيبة إلى هدف صاحبها بالضبط، مما جعل قصة المرأة فى حياة الأنبياء توضع أحياناً فى الخلفية أو على الأكثر فى المقام الثانى من الإهتمام .. أو لا تكاد تقول شيئاً عن هذه المرأة نفسها كما فى قصة زوجة نوح. ولهذا السبب ذاته تجاوزت المعالجة زوجة الرسول إلى المرأة على إطلاقها، كما عرضت قصة صالح التى لم تشر إطلاقاً إلى المرأة فى حياة هذا النبى، وإنما أشارت إلى مؤامرة زوجتين موتورتين من معسكر أعداء الدين، لقتل الناقة التى تعد إحدى آيات الله!

واشتغال مؤلفنا بالصحافة يطبع دراسته هذه بطابعها فى جانبى ما يمكن أن نطلق عليهما المزايا والعيوب. فمن الأولى يطوع مأمون تناوله ليقبله القارئ العادى والمثقف معاً بلغة سهلة بسيطة، ومن الثانية يستخدم باحثنا اللقطات السريعة فى محاولة لاستيعاب ملامح الصورة التى تحتاج غالباً إلى المزيد من التأمل والتعمق وتفصيل الجزئيات .. خاصة إذا كانت الشخصية نفسها والأحداث التى تمر بها، تملك الكثير الذى تقول كما حدث حيال أيوب عليه السلام فى حياته الحافلة .. وما لاقاه من مآس وما شكل من مقاومة للضعف البشرى.

ولقد حملت هذه المعالجة أيضاً طبيعة كاتبها .. الصحفى الفنان والإنسان الرقيق .. فبدا التناول طوال الصفحات حدولاً رقيقاً لينا، لا يهدد ولا ترتفع نبرته مهما عرض من أحداث تتطلب الغلظة أو القسوة.

واستطاع مأمون غريب بهذا الأسلوب أن يحبب عالمه الذى يتناوله للقارئ، خاصة من الأجيال الجديدة التى لا تكاد تعرف شيئاً عن هذه الأحداث المشهورة التي يعرضها صاحب "نساء فى حياة الأنبياء" ..

محمد عبد الغنى حسن
وديوانه "من وحى النبوة"

أرى المجد لا يبنى بدين مضيع
ولا أنفس مفكوكة اللبنات
كفى المسلمين اليوم فى الأرض غفلة
كفى هجعة من أطول الهجعات
إذا لم يكن عزم الرجال مواتيا
فكيف يلام الحظ غير مواتى؟

محمد عبد الغنى حسن - قصيدة "كفى الهجوع"

عرف عدد غير قليل من كتاب العربية خاصة فى العصر الحديث بكتاباتهم عن الرسول محمد صلوات الله عليه وسلامه. ومن هؤلاء الكتاب فى مصر: محمدحسين هيكل، طه حسين، توفيق الحكيم، عباس محمود العقاد، عبد الرحمن الشرقاوى، مصطفى محمود وغيرهم. والجدير بالذكر أنهم جميعاً يتخذون النثر أداة، بينما لا يكاد يذكر من كتب عن النبى الكريم من الشعراء .. فى الوقت الذى فعل عديد منهم مثل أحمد محرم، والماحى، وكامل أمين. واليوم نلتقى بشاعر آخر عرف بدراساته الكثيرة فى ربع القرن الأخير، أكثر مما

عرف بشعره وهو الأديب محمد عبد الغنى حسن الذى اشتهر فى الأربعينيات بـ"شاعر الأهرام". والذى أصدر فى عام ١٩٤٩ الطبعة الأولى من ديوانه "من وحى النبوة". ويهديه إلى روح النبى العربى محمد بن عبد الله.

والمنهج الذى اتخذه شاعرنا فى ديوانه، مكّن "من وحى النبوة" فى ألا يتحول إلى حصة تاريخ .. تحتشد بالتواريخ والتفاصيل والحوادث وعشرات من أسماء البشر والبلاد والمدن والوقائع. ولا يعنى هذا أن معالجة محمد عبد الغنى حسن للنبوة، ووحيها، خلت من ذلك تماماً .. وإلا بدت ملامح الأشياء "ممسوخة" لا تبرز نبضاً.

ومن أهم الأحداث الإسلامية المبكرة، التى احتفل الشاعر بها، الهجرة. فقد تنولت أكثر من مرة، سواء فى قصائد خاصة بها، مثل "أمم الإسلام بين عواصف الأيام، و"مطالع عام"، أو تجيء ضمن موضوعات أخرى .. ويحتوى الديوان على اثنتى عشرة قصيدة ومسرحيتين. ونبدأ بالمسرحيتين أو التمثيليتين وهما من فصل واحد .. "هو النبى المنتظر"، و"مؤامرة تخيب".

أما أبطال الأولى، فهم أربعة شعراء من العهد الجاهلى، زهير بن أبى سلمى، حسان بن ثابت، الأعشى، قس بن ساعدة الأيادى. جعلهم مؤلفنا يلتقون ويتحادثون. وليس من الضرورى بالطبع فى عمل مؤلف، أن يكون ذلك قد حدث حقيقة فى الواقع. والهدف من اللقاء هو تجسيد بعض

جوانب الحياة الجاهلية، التى تمهد لظهور نبى الإسلام. وكما نعرف فزهير حكيم مات قبل البعثة وكان يؤمن بالثواب والعقاب واليوم الآخر. وحسان الذى عاش طويلاً بعد الإسلام، كان يستشعر في جاهليته أن الغد الآتى بالنبى الجديد، يعده هو شخصياً لدور كبير فيه أما الأعشى فقد تلون قلبه بين الكفر والإيمان، حتى أنه بعد أن أعد قصيدة يمدح فيا النبى ويعلن إسلامه، لم يشرح الله صدره .. فلم يقدم فى اللحظة الأخيرة. والرابع مفكر عربى جاهلى استشرف فى الغد أنوار الرسالة المحمدية. وزمان المسرحية ومكانها، قبل الجاهلية فى مكة بعد أداء الحج. الأعشى فى لحظة طرب يرى أن يلهو ويغرق نفسه فى معشوقته الخمر، ويحلف بها وبأربابها وبالنعم فى الخمر فى بابها.

لأتخـــذن بهـــا طوفتى

وأقضى الحقوق لأصحابها

ولكن زهير يعارضه على الفور، فحياة المرء لا يجب أن تكون بهذا الشكل الفارغ والمتعة الزائفة.

عجبت لمن يقضى الحياة ملاعبا

وأيامه من جدها ليس تلعب

وعندما يحاول قس أن يشارك فى الحديث، منكراً على الأعشى أمره. يتصدى له الأخير منكراً أن تكون فلسفة قس أو حكمته أو تجاربه، بنافعة له بعد موته. مؤكداً عبثية الحياة

التى تجعلها بلا جدوى .. لأن الموت يأتى فيلغى كل شيء إلى الأبد، بلا نشور. ويكون سكوت عالم الموتى، دليلاً آخر على الفناء الذى لا تقوم له قائمة. فالماضى لا يبعث على حد رؤيته .. لا يأتى منه تذكرة أو أخبارا ويتصدى قس لهذه المفاهيم الباطلة .. فإغراق النفس بين الكأس والطاس وأحضان المرأة، يطمس عين صاحبها عن الرؤية لما حوله من آيات الخالق، سواء فى الليل أو النهار ..

بدائع شادتها يد القادر

تدين له الدنيا، وتعنو الجبابر

وتمر فتاة فيغض الجميع الأبصار إلا الأعشى، الذى يقول فيها شعراً .. يعرض فيه بقس خاصة. ولكن حسان يحول الحديث وجهة أخرى، ويدور الكلام بينه وبين زهير حول النبى المنتظر. وما يتردد فى بطاح مكة حول خروج هذا النبى العربى من أرضها. فإذا أكثر نفوس الشخصيات تهفو إلى ذلك الحديث الخطير وبطله العظيم. فيقول حسان:

لعل هاديا بدا

لعل مصلحا ظهر

فيشاركه زهير الفرحة ويتمنى:

يا ليتنى يطول بى

إلى لقائه العمر

وبالرغم من أن هذه المقطوعة بهذا الشكل، تخرج عن كونها مسرحية أو حتى تمثيلية .. إلا أن محمدعبد الغنى حسن، استطاع أن يجعلها تستروح الأشواق إلى الدين الجديد الذى يجىء بالنور مبدداً الظلام.

وإذا كانت "هو النبى المنتظر"، تقع أحداثها فى العصر الجاهلى .. فإن "مسرحية" "مؤامرة تخيب"، تقع فى أيام النبوة. وشخوصها هم: أبو جهل، أبو سفيان، الشيطان، أمية ابن خلف. ومكانها قرب دار النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وزمانها ليلة من ليالى المحرم. وبعرض المشهد الأول لأبى جهل، وهو يتزعم كفار قريش فى معسكر الكراهية للدين الجديد والنبى الكريم، ويتهم محمداً:

هذا الفتى ضل عن دنيا أبوته

وراخ ينشر فى آبائه دينا

قالوا أمين، فقلنا ما أمانته

ما كان حتى على الأصنام مأموناً!

ومع أن أبا سفيان يشاركه الرأى، إلا أن ذلك لا يمنعه من أن يحمل حديثه كراهية بنى أمية لبنى هاشم. ويجسد مؤلفنا الشيطان رجلاً يساهم فى الحوار، ويعمل على مزيد من التفرقة بين قبائل العرب. وينتهى الحقد بالجميع إلى ضرورة اغتيال النبى! وعندما يجمعون أمرهم، ويقتربون من المخدع، يفاجئون أن النائم هو على بن أبى طالب!

والمقطوعة الثانية أيضاً، أقرب ما تكون إلى الشعر المدرسى، الـذى لا يسـمح لصاحبـه بـأن يعمـق الأشـياء والشـخصيات والمواقف!

ومع عـالم القصـائد، نجـد أن أخلاقيـات النبـى، تشـد نظـر شاعرنا، فيتوقف عندها كثيراً .. لأنها القـدوة التـى ينبغـى أن نترسم خطاها. فهو كما جاء فى قصيدة "صـبراً دعـاة الحـق" سماء لكل المكرمات، يقابل الشر بالخير ويعفو عن الغل ..

نثروا عليك الحقـد مـن شـهواتهم

فنشرت من نبـل الخـلال وفـاء

والقدرة على المقاومة، كانت من أهم سمـات نبـى الإسـلام والمسلمين الأوائل .. وهى التى شاركتهم فى تأصيل قيم الدين الجديد فى الأرض .. فى مجابهة قوى الظلـم والـدول الكـبرى والحضارات القديمة والحقد فى الداخل والعصبية والتعصب.

آذوه .. فـاحتمل الأذاة مصـابرا

ورموه فـاحتمل الرمـاة مجـالدا

والمقاومة هى أيضاً القدرة على تحمل الأذى بتباين أشكاله، النفسى والجسدى. يقول محمد عبد الغنى حسن فـى قصيدتـه "خطوات الحيارى".

حمل الأذاة فكـان أقـوى عـدة

وأشد مصطـبرا علـى الإيـذاء

وفى هـذا الموضـع يصـور شـاعرنا فـى صـورة بارعـة، فـى قصيدته "ظلم القريب" .. ما ألم بالنبى العظيم من أحزان وهـو يجد أهله وعشيرته .. أى أقرب النـاس إليـه، يتخـذون موقـف العداء من دعوته:

وشـر مواطـن الإنسـان دارٌ
يرى من أهلـــه فيهـا عذابـا
يناديهـم فـلا يلقـى سميعـا
ويدعوهم فـلا يجـد الجوابـا

واستيحاء كل ما يشكل وحى النبوة، يدفع محمد عبد الغنى حسن، إلى استلهام الواقع المعاش أيضاً. فمن ناحية تسـتوعب الشخصية النبوية كل ما جاء به الإسلام، الذى هو دين ودولة فى نفس الوقت. ومن ناحية أخرى، فإن الواقع الذى يتنفسـه النـاس اليـوم، فـى أمـس الحاجـة إلى القيـم التـى سـادت فـــى السنوات الأولى الزاهـرة فـى الإسـلام. فمـا أكـثر الهمـــوم والعقبـات التـى تثقـل علـى المسـلمين المحدثـين، وتعمـل علـــى إضعافهم وجعلهم عرضة للاستعمار العالمى بكافة أشكاله.

إن شـاعرنا لا يجـــد إزاء اختـــلاط الأشـياء علـى النـــاس، وإنغماسهم فى الحيـاة الدنيـا حتـى الرقـاب، وسـخريتهم من الالتفات إلى الجانب الروحى فيهـم .. إلا أن يـأمل فـى رحمـة السماء التى يمثلها الدين ..

يا شعر حدث شباب النيل وارو لهم
وقص من ذكرك العالى لهم خبرا
واجمع على الدين والأخلاق عقدهم
فقد تفرق هذا العقد وانتثرا
يارب أدرك من الإسلام أمته
واجمع على نهجك الأفراد والأسرا
هيا انصروا الخلق الدينى تنتصروا
فالله ينصر من للملة انتصرا

ولا يفوت محمد عبد الغنى حسن أن يعرض وجه الدين المشرق الحقيقى، الذى أصبح لا يعرفه إلا القلة من المسلمين. لأن أغلبهم يشوهون عامدين أو غير عامدين، هذا الوجه بما ليس فيه .. بالإسرائيليات أو بالقشور أو بالآلية فى العبادات أو بالتجاهل التام لما يفرض فى السياسة والاقتصاد والأدب والفن .. أى بالبعد عن روحه ..

هذا الكتاب حوى مبادئ ملة
كالمسك نشرا، والضحى برهانا

ويقول فى موضع آخر:

لا تحسبوا الدين ألفاظا وثرثرة
ولا التدين أوهاما ولا صورا

وإذا كان البعث الإسلامى والعربى فى حاجة إلى الجهاد، فقد أخذ شاعرنا يدعو إليه ويضعه فى حياة الشعوب .. كما يفرض الإسلام:

قل للذى سئم الجهاد وملـه

هلا اتخذت من الرسول عزاء

ما قيمة الدنيا إذا هى لم تكن

صبرا وأخذا دائما وعطاء؟

صبرا دعاة الحق أن نصيبكم

أن تقطعوا أيامكم غرباء

مهلا دعاة الحق إن سبيلكم

ليست يسارا كلها ورخاء

هى أن تضحوا بالحياة رخيصة

وتقدموها للجهاد فداء

وإذا كان الإسلام هو الوحدانية، التى قامت بتحطيم الأصنام .. وكان توفيقها الأكبر. فهذه الأصنام ما لبثت أن عادت ثانية فى أشكال مختلفة، أبعدت المسلمين عن الله فى العصر الحاضر. ولذلك فالبعث الإسلامى الجديد، يحتاج إلى إعادة الكرة وتحطيم الأصنام مرة أخرى. يقول شاعرنا فى قصيدته "محطم الطواغيت":

أيها الهـــــــــادم أصنـام "منـى"

عادت اليــوم كمـا نحـن نراهـا

أين منها "الـلات" فـى طاغوتهـا

والقرابـين تضحـى لشراهـــــــا

كل أرض بدلـــــت مـــن ربهـــا

صنما يمتــص بـالبغى دماهـــــا

ومن أكبر العيـوب التـى تلـم بـالمواطن فـى الشـرق العربـى والإسـلامى، خاصـة فـى زمـن الضعـف، بعـده عـن الصـــدق والموضوعية .. واتخاذه الموقف الذى تفرضه الأنانية لا الحق أو العدل. ومن هنا تستبدل مواقع الأشياء ويلحقها الزيف.

ومـــــن تكـن المـآرب ضللتـه

يرى فى الحـق زيفـــا واضطرابـا

يعيب ذوى المبــادئ وهـو أهـل

لأن يرمـى، وأجـدر أن يعابـــــا

مواقف حاسمة
فى تاريخ الإسلام

ما أكثر القمم الفكرية الشامخة فى حياتنا التى نجهلها ولا نعرف فضلها وتأثيرها البالغ، وما تملك من رؤية عميقة تفسر وتحلل وتخرج بنتائج جيدة تغيّر مسلمات على مستوى تاريخنا وبسبب هذا الجهل وعدم التواصل مع آثار وإبداعات مفكرينا السابقين .. والاستفادة منها، يرجع أحد الأسباب الهامة لتأخرنا. من هذه القمم يبرز اسم محمد عبد الله عنان (١٨٩٦-١٩٨٦) الباحث والمؤرخ العظيم فى تاريخ الأندلس والمفكر والأديب والمترجم وصاحب "مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام" الذى ظهرت طبعته الخامسة فى "مكتبة الأسرة" عام ١٩٩٧.

العلاقة بين الشرق والغرب وهي محور كتابنا، تبدو على أقلام كثيرة أنها حديثة العهد نسبياً، بدأت فى العصر الحديث منذ القرن الثامن عشر الميلادى على أكثر تقديرا! وهى عند دعاة التغريب تزداد تعتيماً وبعداً عن الحقيقة، وهى تصور مجرد صراع فكرى .. شيء محترم .. صراع حضارى بين قوم متأخرين وقوم متقدمين. بينما الحقيقة كما يثبت الواقع والتاريخ على عكس ذلك تماماً .. إذ أنه صراع دموى يعمل

فيه العرب على ابتلاع الشرق واستعباده، ولا يطيق أن يتمتع بالحياة الحرة الكريمة القوية.

"فهذه المجموعة من الوقائع والأحداث الخطيرة الفاصلة في سير التاريخ الإسلامي، تلقي أعظم ضوء على ذلك الصراع الخالد، بين الشرق والغرب، والإسلام والنصرانية، وفيها يرى القارئ كيف لبثت الفكرة الصليبية قروناً محور هذا الصراع. وكيف أنها كانت تشتد وتضطرم، كلما بدأت فورة إسلامية جديدة من القوة والإحياء. وكيف أنها لم تعرف قط سبيلاً إلى المهادنة، حتى بعد أن نبذت الخلافة فكرتها القديمة في احتياح الغرب، وإخضاع النصرانيين لصولة الإسلام. واكتفت الأمم الإسلامية بأن تسير في سبيل التوسع الإقليمي السياسي. والواقع أن الفكرة الصليبية لبثت حية في الغرب، حتى بعد أن خبت تباعاً قوى الإسلام في المشرق، وانتهت دولة الإسلام في الأندلس. وكان مبعثها عندئذ هو خطر الفتوح العثمانية أمام الغرب المتحد بعد صراع طويل الأمد، استحالت الفكرة الصليبية إلى ثوبها السياسي الجديد، وهو ثوب السياسة الاستعمارية التي ترمي إلى فرض سلطان الغرب على الأمم الإسلامية والشرقية بوجه عام، والتربص بكل فورة أو نهضة جديدة يجيش بها الإسلام أو المشرق".

وهذه المواقف الحاسمة فيتاريخ الإسلام التي عالجها محمد عبد الله عنان في كتابه .. ليست كذلك بالنسبة إلى الإسلام فحسب، بل هي أيضاً وبنفس الخطر بالنسبة إلى العالم الغربي. والكتاب يقع في سبعة فصول ويسبقها تمهيد ينقسم إلى

قسمين: وثبة العرب وسياسة العرب الدينية ومواقف حاسمة. أما الفصل الأول فهو: حصار العرب لقسطنطينية. الثانى: بلاط الشهداء. الثالث: موقعة باب الشزرى. الرابع: المسلمون سادة البحار، ويتناول: فتح إقريطش، وفتح صقلية وسردانية وكورسيكا، وأعظم بحار مسلم. الخامس: غزو المسلمين لرومة. السادس: موقعة ملازكرد. والفصل السابع: فكرة الحروب الصليبية.

حلم المسلمون منذ تكوين دولتهم الفتية فى إسقاط القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كى يتم لهم الغلبة نهائياً على هذه الإمبراطورية القوية التى تحكم العالم أو تكاد .. بعد أن تم استيلاؤهم على أغلب ممتكلاتها. وقد أحاط هذا الحلم مظاهرة احتفالية إغرائية من الحديث النبوى -الموضوع غالباً- فيبدو -الحلم- أكثر بهاء. وكان هناك هدف آخر أبعد وأكبر "ولكن الخلافة كانت ترمى بغزو قسطنطينية إلى أكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية. وكانت غايتها أجل خطراً وأبعد مدى. فقد كانت ترى أن تجوز قسطنطينية إلى الغرب، وأن تحمل دعوة الإسلام إلى أمم النصرانية .. وأن تفرض عليها سيادته". ويضحى العرب فى هذا السبيل تضحيات جسيمة على مدار سنوات طويلة فى محاولة للفوز. ولم يوفقوا، فغيروا خططهم لنفس الهدف .. فإذا لم يفلح طريق الشرق فلعل طريق الغرب، من ناحية البرتغال وأسبانيا وفرنسا يجدى. وهكذا أسسوا دولتهم فى الأندلس ثم استولوا على الجنوب الفرنسى، "وكان قد مضى

منذ وفاة النبى العربى إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) مائة عام فقط. ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً، واكتسحوا العالم القديم فى وابل مدهش من الظفر الباهر. واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام إلى أقاصى المغرب وأسبانيا، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا. هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح الأقطار الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها".

وتكون معركة بلاط الشهداء فى جنوب فرنسا حداً فاصلاً لأطماع العرب فى الهيمنة على العالم. فشل فيها جيش المسلمين لحرص الجند وسط المعركة على حماية ممتلكاتهم الثمينة التى اغتنموها بعد المواقع السابقة! فتركوا القتال الدائر للحفاظ على الغنائم .. فدهمهم العدو! يقول عنان "كانت أعظم لقاء حاسم بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب. ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصاير العالم القديم كله، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية".

وبراعة معالجة محمد عبد الله عنان التى أبرزت كل ما يتصل بالمواقف الحاسمة من قريب وبعيد، فسرت الكثير من الأحداث وأرجعت نتائجها إلى جذورها التى أبانت مواقع القوة والضعف. وفى الحالة الأولى كان الحفاظ على قيم

الإسلام هو الدافع، بينما فى الثانية كان النكوص عن جوهر العقيدة. وجاء تناول هذا الضعف فاضحاً للأخطاء القاتلة للمسلمين والعرب التى هوت بحضارتهم إلى القاع. ومن المؤسف أنها نفس ممارساتهم الخاطئة اليوم التى جعلتهم فى ديل الأمم. مثلاً الموقف من الأعداء التقليديين الذين يجاهرون الإسلام بالعداء، عاملين على دحره فى مختلف المجالات. فنحن على العكس مما ينتظر منا .. نقبل عليه وننسى إساءاته الحاضرة والماضية .. فعل ذلك عرب الأندلس قديماً ونقلدهم نحن بغباء اليوم!

وإذا كان الصراع بين الشرق والغرب يتسم فى أغلبه بما يدور فى ميدان القتال من أجواء الحرب، ويلقى بظلال الكراهية والانتقام والثأر على العلاقة بينهما .. فهى تشذ أحياناً عنها وتعرف الصفح والتسامح وفتح صفحة جديدة بين الطرفين، وكثيراً ما فعل المسلمون ونادراً ما أقبل الغربيون. كما حدث للفريق الأخير أيام روجر الثانى فى جزيرة صقلية بعد أن استردها المسيحيون. فقد وجدت الجالية العربية منه رعاية وفهماً وتسامحاً وتقديراً للحضارة الإسلامية .. دفعه إلى استقدام العلامة الجغرافى المعروف الشريف الإدريسى، وكلفه بوضع موسوعة جغرافية للعالم .. أتمها الرجل بالفعل. وكان المؤلف العظيم "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق".

والمؤرخ الحقيقى يلتزم بالصدق والدقة ولا يضفى ألواناً غير حقيقية على ما يقدم. ومن هنا تميزت كتابة عنان التاريخية بالأمانة التى تستدعى الصدق دائماً وتضع النقاط فوق

الحروف غير عابئة إلا بوجه الحقيقة وحدها سواء آلمتنا أو أبهجتنا بالنسبة إلى ما شوهنا به تاريخنا. وكان من الطبيعى لهذا المنهج ألا يعبأ بإخفاء أو تجميل، كما يفعل البعض من كتاب التاريخ. وأتاح ذلك توضيح أو كشف بعض القضايا أو الأحداث التى تبدو غامضة يلفها الضباب ليست محددة القسمات. منها حقيقة القوات المسلمة التى غزت جزائر البحر الأبيض المتوسط. وإذا بمؤرخنا يكشف بشكل شديد الوضوح أنها لم تكن جميعها من الأساطيل البحرية الرسمية، بل شارك فى هذه الفتوحات أيضاً قوات القراصنة المسلمين، الذين يعملون لحسابهم الخاص. وعاثوا فساداً وقتاً طويلاً تعرضت فيه هذه الجزر لهجماتهم الوحشية.

ولعل أهم ما قدم عنان فى كتابه تصحيح وتوضيح مفاهيم ووضعها فى سياقها، فإذا هى أدق وأشمل وأكثر تحديداً، بحيث تستوعب جوهر المعنى نفسه وليس شيئاً هلامياً. كما أن نظرة مؤرخنا الشاملة لأدق التفاصيل تمكنه من الوصول إلى أعماق الأشياء.

ربما يدهش قارئ اليوم لما يجد فى تاريخيات محمد عبد الله عنان من اللمسة الأدبية الواضحة، بينما الأمر لمن يعرف كاتبنا لا يدعو إلى الدهشة. فمؤلفنا قبل أن يكون مؤرخاً .. كان مبدعاً قصاصاً وباحثاً ومترجماً قبل أن يتجه إلى التاريخ. وليس الأسلوب الأدبى وحده هو الذى يعكس الظاهرة، بل هى تزداد وضوحاً وصاحبها يهتم بانعكاس الأحداث التاريخية على الأدب. ففى أكثر من موضع فى كتابه يشير إليه ويترجم

بعضه. وبذلك يضيف بعداً جديداً للموقف الحاسم، يعرض موقف الأدب منه وأشواق الجماهير فى أوربا وعواطفهم تجاهه، بغض النظر عن الحقائق التاريخية. ففى أنشودة رولان المشهورة وهى عن موقعة باب الشزرى فى أسبانيا التى ضفرها حنين الغرب إلى البطولة وتجميل هزيمته وبعث الحماس في نفوس الناس .. تجدها "أبعد ما تكون عن وقائع التاريخ الحق. بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع، ومن الذكريات، والروايات الشفوية المتناقلة، والأناشيد الحربية المعاصرة".

وهكذا فإن المعالجة التى ينتهجها محمد عبد الله عنان لا تتوقف عند الحدث نفسه وبواعثه وأهدافه ونتائجه، بل تشمل ما حوله أيضاً وفيما يتصل بالحكام والشعوب .. فإذا هى إحاطة شاملة تستوعب الجليل والضئيل كأنها صورة بانورامية توقف المتلقى على أدق الخفايا التى تبعث التاريخ ثانية حياة معيشة تمكن أن يتنفسها بكل دقائقها. وهى براعة عرفت عن مؤلفنا التى يرسمها بأسلوب مركز.

ويقول عنان فى السطور الأخير من "مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام" .. "وهل نحن بحاجة لأن نقول إن الصراع بين الإسلام والنصرانية مازال قائماً، وإن الغرب مازال فى عصرنا ينظم حملاته الصليبية على الإسلام، فى ظل الاستعمار السياسى والاقتصادى؛ بأساليب جديدة تستتر بأثواب التمدين والتهذيب والتثقيف؟"!

أعلام فى
التاريخ الإسلامى فى مصر

فى السنوات الأخيرة كثرت الكتابة الإسلامية، دخلهـا من له اهتمام حقيقى بالعقيدة وغير حقيقى على السواء .. من يعبد الله ومن لا يعبده أيضاً! والسبب أنها تجارة رابحة شديدة الرواج، وأغلب كتابها عديمو الموهبة قليلو الزاد، فشلوا فى الفنون الأخرى التى تتطلب قدراً من الملكة والإجادة والتى تفضح مستوى صاحبها. أما الكتابة الإسلامية التى يختلط فيها الحابل بالنابل، فلأن جمهورها كبير .. فهى لا تتطلب عند أغلب الناشرين إلا أقل المستوى، ولذلك فهم أو كتابهم لا يقدمون جديداً .. يجترون القديم وربما بلا فهم، فلا يجد المتلقى زاداً وإنما قشوراً لا تسمن ولا تغنى من جوع، وإن كانت تسد حاجة المستويات الدنيا من القراء. أما القلة من الكتاب فهم هؤلاء الأمناء على مسئولياتهم .. الحريصون على أن يلبوا حاجات القارئ الروحية. من هؤلاء سامح كريّم.

فى كتابه "أعلام فى التاريخ الإسلامى" الذى يتناول خمسا وسبعين شخصية، تكون رؤيته كما يحمل العنوان الفرعى "أفكار للتجديد ومواقف للحياة". ولذلك ينبض بالحيوية والعمق ووضع الإسلام حيث هو فى جوهره. وفى هذا السياق تبدو أمور كثيرة على حقيقتها وليس من مظهرها أو

فهم الناس -العوام وغير العوام- لها. ويكون ذلك وسط الضحالة والإسفاف والسطحية الذهنية .. بمثابة الاكتشاف .. وهو يعالج الشخصية والقضية بلغة العصر مستجيباً إلى أشواق الإنسان في الحرية والكرامة والعدل الاجتماعي .. وهي هموم الإنسان المعاصر.

من خلال تناوله لشخصية الإمام جعفر الصادق يعرض قضية الزهد ويضعها في مكانها الطبيعي وليست فيما يهوى المستبدون والجهلاء. الأولون الذين يستخدمون الزهد لإلهاء الشعوب وإبعاد الجماهير عن حلول مشاكلهم ومحاسبة حكامهم. والآخرون الذين يقنعون بالهوامش والسطوح والتوافه. يحدث هذا في كل العصور .. والأمس واليوم .. المبتلاة بالاستبداد والجهل. "كانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر وتدعوهم صراحة وليس ضمناً إلى العزوف عن طيبات الدنيا بل والأكثر تدعوهم إلى عدم التفكير في أحوالهم. وقد شجع حكام بني أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير في استبدادهم وطغيانهم ويصرفوهم حتى عن محاولة المقارنة بين غنى هؤلاء الحكام وفقر المحكومين .. وشجع بنو العباس هذا الاتجاه وعاضدوه". وكان هذا إفساداً للعلاقة بين الحاكم والمحكوم كما يراها الإسلام، ويجد الإمام جعفر الصادق في ذلك امتهاناً لقيم العقيدة، لأن هذا الوضع "يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وأنه ليس من الإسلام في شيء، حيث تبدأ بإهمال الإنسان لنفسه، وينتهي بعدم اهتمامه بمصلحة الأمة، فلا يحاسب حاكماً، ولا يستوقفه أمر

فى الدولة معوج. وبدأ فى مناقشة الداعين إلى الزهد قائلاً: "الزهد كما أفهمه هو الاكتفاء بالحلال، لا التجرد من الحلال"!

ولعل أهم الأسباب التى تقعد بالكثير من الكتابات الإسلامية عن أن تؤدى دورها، أنها لا تستجيب لحاجات حقيقية .. والسبب أن أصحابها أبعد الناس عن الإسلام من ناحية وعن معاناة مجتمعهم من ناحية أخرى، ولذا فهم يجهلون أحلام الإنسان المسلم وآلامه. ولذلك لا تحمل كتاباتهم شيئاً يهم المتلقى، وإنما هى تخدع بعض البسطاء ضئيلى الثقافة والفكر الإسلامى. فكل كتابة تتمسح بالإسلام، تبدو لهذا البعض من المتلقين فى صميم الدين! بينما علامات استفهام كثيرة فى حاجة إلى جواب. وقد التفت سامح كريّم بوعى كبير إلى ما يشغل البال والوعى الإسلامى، ومن ذلك تفسير حب الجماهير لآل البيت، وفى المقابل حب أو إدعاء الحكام المستبدين لنفس آل البيت. "إن هذا الالتفاف حول آل البيت، ومحبتهم وتقدير المسلمين لهم كان يمثل الخطر الأكبر لدى الأمويين أو العباسيين مع أن آل البيت كانوا لا يطمعون فى جاه أو سلطان" لأنهم يحملون الرمز لكل ما هو صالح وخيّر وعادل ضد الفساد والظلم والقهر. وكان عدم تحجيمهم بمثابة الخطر الأول لقوى الاستبداد .. مما أدى إلى حصارهم المعروف مئات السنين.

وتباعد المسلم عن جوهر الإسلام وعدم التزامه به إلى درجة القحة حباً فى الدنيا، لا يقتصر على المسلم العادى بل

يتجاوزه إلى عالم الدين نفسه، الذى أصبح فى أغلب الأحيان مجرد اسطوانة مشروخة يردد عبارات محفوظة فقدت الروح. ولذا فهى لا تقنع حتى صاحبها الذى لا يعمل بها. كما لا يتحمس أبداً للقيام بواجبه، أو حتى ما تفرض عليه وظيفته التى يتعيش منها! ولعل من أخطر القضايا التى يغيب عنها حضور عالم الدين فى المجتمع اليوم .. هى جبن حامل لواء الدعوة عن التصدى لاستبداد الحاكم. وهو لا يكتفى بالسكوت بل يسارع هو الآخر بمداهنة هذا الحاكم وخدمته ووضع علمه فى تحليل الحرام وتحريم الحلال تحت طلبه. بينما قام الإسلام أصلاً ضد الطواغيت والطغيان والقهر. وقد ألم كاتبنا أكثر من مرة بهذه القضية الخطيرة التى لا تزال تسرى سريان الأوبئة فى مجتمعاتنا الإسلامية.

فى تناول سامح كريّم للإمام العالم أبى جعفر الطحاوى الذى انتهت إليه إمامة المذهب الحنفى بمصر، يعرض مواجهة حدثت بين العالم وبين والى مصر فى ذلك الحين تكين فى عهد الخليفة العباسى المقتدر – الذى اشتهر بالتسلط والقهر حتى لقب بالجبار المهاب .. كان فيها عالم الدين مثالاً للشجاعة التى لا تهاب مخلوقاً. وفى البداية حاول الحاكم المستبد أن يطويه ويغريه بالمال والأرض وتزويجه ابنته. وكان رد العالم الجليل المفعم قلبه بالإيمان "احفظ دينك لئلا ينقلب، واعمل فى فكاك نفسك قبل الموت، وإياك ومظالم العباد"!

وأهمية رسم الشخصية الإسلامية الحقيقية، أنها تبلور وتفجر القيم العظيمة الكامنة فيها والتى خلقت من عرب

الصحراء صناع حضارة عالمية. وفى الملامح التى يقدم كاتبنا للشخصية يتوقف حتى عند الملامح الصغيرة ولحظات الضعف التى تعكس هى أيضاً عظمة الإسلام الذى يربى أهله تربية سامية. وفى تناول كاتبنا لمسيلمة بن مخلد المحارب المسلم الشجاع الذى شارك فى فتح مصر، وكان واحداً من أربعة أمد بهم الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لأن الرجل منهم على حد تعبير الخليفة "مقام ألف رجل". والثلاثة الباقون هم: الزبير بن العوام، عبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود. ويقوم سوء تفاهم بين عمرو ومسلمة مع ما يكن الأول من شديد الإعجاب والتقدير للثانى والسبب أن مسيلمة وهو من قواد الوالى لم يشأ أن يتقيد بموقعه فى الإشراف على إحدى المعارك فحسب، بل ساهم فيها مساهمة فعالة حتى كاد أن يقتل. وأغلظ له عمرو القول، وكظم الآخر غضبه وإن أسرها فى نفسه، ولم يكن ذلك بالطبع يفسد بين الاثنين. ولا يلبث أن يتضح لعمرو أنه أخطأ فى حق صاحبه، فإذا هو يعتذر له معترفاً بخطئه لا يجد فى ذلك غضاضة ولا يلتمس من الكبر مخرجاً. ويطلب منه أن يسامحه ويفعل الثانى راضياً.

والشخصية التى يقدمها سامح كريّم فى كتابه ليست عادية أو سلبية أو بلا لون، بل هى مميزة إيجابية ذات موقف تكافح فى سبيله وتدافع عن المبدأ. فصاحبها مهموم بمجتمعه وناسه، وثيق الصلة بهذا المجتمع وهؤلاء الناس .. ولذا فنبض العنصر شديد الوضوح فى كل منها .. يعكس الجيد والردىء

فى سلوك الجماهير كما يبرز العيوب ومنها الانتهازية. إن التزلف والنفاق والوصولية هي دائماً سبيل النفوس الوضيعة إلى اغتنام الفرص، وهى دائماً تفرخ فى عصور القهر والظلم والانحطاط. وهى بالتحديد ذات جذور قديمة فى الأرض العربية والإسلامية، التى منيت عصوراً طويلة بالمستبدين. والكثير من فصول كتابنا تشير إلى هذه الآفة فى تاريخنا الممتد القديم. مثلاً بعد أن طويت صفحة بنى أمية التى سادت فيها الانتهازية مسايرة للدولة التى ترفع راية الترغيب والترهيب، أملت الأمة الإسلامية مع مجىء العباسيين أن يبدأ الحكم صفحة جديدة معتمداً على مبادئ الإسلام. ولا يلبث أن خاب الأمل، والخلفاء الجدد يتابعون الملك العضوض ويشجعون على النفاق والوصولية والتسلق. "أحاط إخوان السوء من المنافقين بالخليفة الجديد مرة ثانية. وإذا هم يوسوسون له بالآراء نفسها، بل يوهمونه أنه فوق الحساب، حتى لقد جعلوا المنصور يوماً يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه"!

إن تجسيد الحياة التى عاشتها الشخصيات كان هدفاً من أهداف الكاتب، فمن خلال الاهتمام الإنسانى تتفجر قوى الشخصية. كما أن العناية بالجانب الحياتى اليومى يستكمل الناحية الروحية فى الفرد، ويجعل السمات التى يتحلى بها كأنها فى متناول اليد. ودعوة إلى الاقتداء والتمثل إذا كان صاحبها قوياً، والتنديد بها إذا كان ضعيفاً. عندما يجىء رسول الخليفة العباسى المتوكل من بغداد إلى البصرة، يحمل إلى

بكار بن قتيبة الرجل الزاهد الورع النزيه نبأ تعيينه قاضى قضاة مصر، وهو أحد مناصب الدولة الرفيعة. ويسأل الرسول عن الرجل، فيكون الجواب "إنه مضى إلى الفرن! واندهش مبعوث الخليفة لما سمع .. إذ كيف يحدث أن يكون رجل كهذا بمثل هذه البساطة والتواضع. وانتظر قليلاً حتى أقبل من بعيد رجل على رأسه طبق من الخبز. وكانت الدهشة أكبر حين علم أنه بكار بن قتيبة الذى جاء من أجله. فدنا منه وهو لا يصدق ما يرى وقال: أنا رسول الخليفة المتوكل .. جئتك بتولية قاضى القضاة على مصر، وهذا كتاب الخليفة. وقبل أن يتسلم بكار رسالة الخليفة قال لرسوله: انتظر حتى أعود إليك، ثم تركه ودخل منزله وبعد أن غاب لحظات أخذ منه الخطاب وفى الوقت نفسه دفع إليه برغيفين من الخبز، ولم يعلق أو ينطق بغير: "امض فى حفظ الله تعالى"!

ومن الطبيعى وسامح كريّم يتمثل فى شخوصه جوهر الإسلام ومبادئه الحقيقية أن يخص العقل بكثير من الاهتمام. فليس هناك عقيدة سماوية أحلّت العقل والتفكير مثلما فعل دين التوحيد. ومع هذا فإن المسلمين بالتحديد هم أقل شعوب العالم احتراماً للعقل واستخداماً له! مما عرضهم لكل نوائب الجهل والغباء والجمود. لقد وصل الإسلام بالتفكير إلى أن يكون فريضة من الفرائض، ومع ذلك لم يتعرض للهوان كما تعرض ولا يزال فى أرض الإسلام خاصة عند حكامها والمسئولين فيها وخطباء المساجد!

وخلفية الصورة فى تناول سامح كريّم لشخوصه ليست باهتة حائلة اللون أو هى مجرد ديكور وسد خانة، بل ثرية عميقة ذات دلالة تقول الكثير .. تكاد تنافس ملامح الشخصية ذاتها. وهذه الخلفية مختلفة الألوان، تتمرد أحيانا على وضعها فتناقش هى الأخرى قضايا شديدة الحيوية. فى تقديم صاحبها لشمس الدين الحنفى تصور وهى تعرب عن سخطها على الاستبداد والمستبدين، ادعاء الحكام الظالمين التشبث بقيم العقيدة بالتقدير اللافت للنظر لرجال وعلماء الدين كأن الاثنين فى عصور الجبن والانحطاط شيئ واحد! على حين كان أغلب السلاطين بلا دين! وفى المقابل يهنأ رجال الدين الذين انشغلوا بالدنيا ومكاسبها عن الآخرة بهذه الحظوة المصنوعة وهذه القضية الخطيرة التى لا تزال تعبث بحياتنا، قدمتها الخلفية باقتدار، وهى مثال على ما يختط لها.

الفهرس

للمؤلف

	سنة
مواقف واتجاهات	
المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١	١٩٦٩
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
مسرح محمد تيمور	
المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ط١	١٩٧٥
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
مسرحيات فى الوهج والظل	
كتاب الهلال - دار الهلال ط١	١٩٧٦
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
فى القصة القصيرة	
المجلس الأعلى للفنون والآداب	١٩٧٦
وجوه قصصية قديمة وجديدة	
اقرأ - دار المعارف	١٩٧٨
يوسف السباعى بين الأيام والليالى	
الكتاب الذهبى - روز اليوسف	١٩٧٩
عالم يوسف السباعى	
المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١	١٩٧٩
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
محمد السباعى الأديب الذى سبق عصره	
كتاب المواهب ط١	
المركز القومى للفنون والآداب	١٩٨٢
دار سنابل ط٢	١٩٩٨

أجيال ضد الماركسية

دار الأصالة للثقافة والنشر بالرياض ١٩٨٤

عاشق الحرية ولى الدين يكن

أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧

دراسات نقدية

المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠

قلوب عاشقة دار سنابل ١٩٩٣

مجالات إسلامية دار سنابل ١٩٩٤

فنان زمان دار سنابل ١٩٩٥

الفنان والحب دار سنابل ١٩٩٥

إسماعيل مظهر رجل الفكر وعاشق الحرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

زكى مبارك عملاق الأدب

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أنيس منصور بين بلاد الله وخلق الله

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

محمد طلعت حرب والعبقرية المصرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أحمد حسن الزيات والقرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

فرح أنطون والمسرح

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٦

شعراء اليقظة الإسلامية فى بداية القرن العشرين

دار سنابل ١٩٩٦

عواطف مضطربة	دار سنابل	١٩٩٦
مع الأدباء العرب	دار سنابل	١٩٩٦
أحمد أمين والروح الإسلامية (شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
دفاعاً عن الحق	دار سنابل	١٩٩٦
م. ع. الهمشرى شاعر الريف (شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
ولى الدين يكن وحياة عاصفة	دار سنابل	١٩٩٦
الشعر والشعراء	دار سنابل	١٩٩٦
بواكير	دار سنابل	١٩٩٧
نساء ورجال	دار سنابل	١٩٩٧
محمود مختار وضمير الأمة (شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٧
مجموعات	دار سنابل	١٩٩٧
روايات مشهورة	دار سنابل	١٩٩٧
ألوان من الشخصيات	دار سنابل	١٩٩٧
رواد ورائدات	دار سنابل	١٩٩٧
رؤية	دار سنابل	١٩٩٧
خمسون كتاباً	دار سنابل	١٩٩٧
أجيال روائية	دار سنابل	١٩٩٧
الحرية تنادى عشاقها	دار سنابل	١٩٩٧
مسرح ومسرحيون	دار سنابل	١٩٩٧

غرام رجل السياسة ورجل المسرح		
	دار سنابل	١٩٩٨
طه حسين والمرأة	دار سنابل	١٩٩٨
جولة قصصية	دار سنابل	١٩٩٨
ملامح فكرية	دار سنابل	١٩٩٨
جوته الشاعر والحب	دار سنابل	١٩٩٨
شخصيات يوسف السباعى	دار سنابل	١٩٩٨
يوسف السباعي ناقداً	دارسنابل	١٩٩٨
قيم روحية	دار سنابل	١٩٩٨

رقم الإيداع ٨٩٦٢ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-5657- 56- 3

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة

هـذا الكتـاب

يتضمن الإسلام أسمى المبادئ الصالحة لكل زمان ومكان ، التى تمكن الإنسان أن يكون حراً أبياً قوياً فاضلاً سعيداً . ولكن كيف ترسمه الأقلام ؟ يظن الكثيرون فى هذا المجال أن كل الإبداع سواء . وهذا غير صحيح ! فتبعاً للإيمان الحقيقى بالعقيدة تكون المعالجة التى تتفاوت قوة وضعفاً .

الكثيرون يكتفون بالهامش من الإسلام تصوره عبارات إنشائية ، لا تقنع العقل ولا تمس القلب . أما القلة المؤمنة التى لا تتاجر بكلمات الله وتضحى فى سبيل الحق وتدفع ثمن قولة . لا .. فهى تهتم بجوهر الإسلام الذى يجسده قبل مظهره .

وفى هذا الكتاب نلتقى باللونين من الكتابات تستطيع أن تعرف أيهما من إختياره !

فنتابع بعض ما كتب محمد الغزالى ، عبد الرحمن الشرقاوى ، أنيس منصور ، حسن عبد الله آ ل الشيخ ، حلمى القاعود ، محمد عبد الغنى حسن ، محمد عبد الله عنان ، سامح كريم ، مأمون غريب .

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصوره ١١٢ شارع السكة القديمة

